جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

" نظام الطبيعة"

بين

هولباخ وهيوم

دراسة تحليلية مقارنة

إعداد الدكتورة

رحمة عبد القادر عبد الحميد دويدار

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالقاهرة

"نظام الطبيعة" بين هولباخ وهيوم
دراسة تحليلية مقارنة

رحمة عبد القادر عبد الحميد دويدار
قسم العقيدة والفلسفة، شعبة أصول الدين، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات، القاهرة، مصر

البريد الإليكتروني: rahmadwidar.1119@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى تحليل نظرة كلاً من هولباخ وهيوم لنظام الطبيعة، وما ترتب على ذلك من نتائج، وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التحليلي المقارن.

وكان أهم ما خَلُصَ إليه البحث من نتائج هو أن البحث في الطبيعة كان هو البداية عند كلاً من هولباخ وهيوم، فوصل هولباخ إلى العالم المادي يتكون فقط من المادة والحركة، وهما يخضعان لمجموعة من القوانين الصارمة التي لا تتغير، بخلاف هيوم الذي وجد أن القانون الذي يخضع له العالم الطبيعي هو قانون "تداعي المعاني" والذي لا يدعي الضرورة، فما وجد في الماضي قد لا يوجد في المستقبل.

وهذا التحليل لنظام الطبيعة عند هولباخ وصل به في النهاية إلى إنكار موجود خالق لهذه الطبيعة، فليس هناك قوة عُليا فوق العالم المادي، بل إنه رفض كل الحجج على وجود الإله وخلود النفس.

بخلاف هيوم الذي رفض بدوره دليل العلة الغائية، والمحرك الأول، والموجود الضروري، ولكنه عاد ووافق على دليل أشبه بدليل العناية والنظام، لكن هولباخ وجد أن التناسق الحاصل في الكون نتيجة القوانين التي تحكم العالم المادي.

رفض هولباخ وهيوم أن تعود الأخلاق إلى الإله، ورأي هولباخ على خلاف هيوم أنها تُبنى على المصالح الشخصية، أو ما يسمي بـــــ(الأنانية المستنيرة).

فنظرة هولباخ إلى العالم المادي أدت به إلى الإلحاد، ونفس النظرة من هيوم أدت به إلى الإيمان والاعتراف بوجود إله، وإن لم يعرف صفاته، حتى إنه رفض القيام بأي شعائر تعبدية له واكتفي في عبادته بمجرد معرفته.

الكلمات المفتاحية: نظام الطبيعة، هيوم، هولباخ، العالم المادي، إلحاد.

"Nature's Order" between Holbach and Hume Comparative Analytical Study

Rahma Abdel Qader Abdel Hamid Dowidar
Department of Faith and Philosophy, Division of Fundamentals of Religion, College of Islamic and Arabic Studies for Girls, Cairo, Egypt
Email: rahmadwidar.1119@azhar.edu.eg

Abstract

The research aims to analyze Holbach and Hume's view of the system of nature, and the consequent results. In this research, the comparative analytical method was followed.

The most important results of the research were that Holbach and Hume were both beginning the research from nature, so Holbach reached the material world consisting only of material and motion, and they are subject to a set of strict laws that do not change, unlike Hume who found that the law that is subject to him The natural world is the law of “association of meanings” which does not claim necessity, for what was found in the past may not exist in the future.

This analysis of Holbach's system of nature eventually led him to a denial of the existence of a Creator for this nature, as there is no higher power above the material world, but rather he rejected all advices for the existence of God and the immortality of the soul.

Unlike Hume, who, rejected the evidence of the final cause, the first mover, and the necessary being, but returned and agreed on a proof similar to the evidence of "care and order", but Holbach found that the harmony that occurs in the universe is the result of the laws that govern the material world.

Holbach and Hume refused to return morals to God, and Holbach's opinion - unlike Hume - is that it is based on personal interests, or what is called (enlightened selfishness).

Holbach's view of the material world led him to atheism, and the same view of Hume led him to belief and acknowledgment of the existence of a God, even if He did not know his attributes, He even refused to perform any rituals of worship for him and was satisfied with his worship by mere knowledge of him.

Keywords: The System of Nature, Hume, Holbach, The Material World, Atheism.

المُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، وعليه نتوكل، والصلاة والسلام على مَنْ بُعث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،،،

فعلم المقارنات الفلسفية ليس علماً جدياً غريباً، فقد انتبه إليه كثير من العلماء في مختلف العصور والتخصصات، فنجد المقارنات في علم الفقه بين آراء الفقهاء المختلفة، ومع الوقت ظهر هذا في صورة منظمة أكثر تحت مسمى علم الفقه المقارن، وتخصص في كليات أصول الدين يعرف بعلم مقارنة الأديان، وهناك كذلك الأدب المقارن والأمر نفسه في مجال القانون، وغيرها الكثير من المجالات التي اهتمت بفكرة المقارنة، وهنا في الفلسفة وجدت الكثير من المقارنات الفلسفية، وإن لم يكن يطلق عليها هذا الاسم، إلا إنها كانت أشبه بنقاشات على أسس عقلية(١)، وما أريد أن أفعله هنا من مقارنة ليس مقارنة بين تيارين، أو فيلسوفين في جميع القضايا التي تعرضا لها، ولكن المقارنة بين فكرة واحدة عندهما، ونظرة كلاً منهما لها، وما تفتق عن تلك النظرة من نتائج، بالرغم من كونهما في عصر واحد بل قابلا بعضهما البعض، وتناقشا وتحاورا، فنتيجة هذه النقاشات بينهما هو ما سأحاول الوصول إليه في هذا البحث إن شاء الله، وهذه كانت مشكلة البحث، مستخدمة في ذلك المنهج التحليلي المقارن، فالمنهج التحليلي هيوم وهولباخ عن الطبيعة، والمنهج المقارن، للمقارنة بين ما توصل إليه كلاً منهما من خلال نظره في الطبيعة.

(١) د. محمود حمدي زقزوق، علم المقارنات الفلسفية، هدية مجلة الأزهر، عدد ذو القعدة ١٤٣٨هـ، ص ١٩ وما بعدها.

ومن ثَم سأقوم بالبحث في نظرة كلاً من الفيلسوفين لنظام الطبيعة حوله، خاصة وأن في القرن الثامن عشر- وقتما وجد الفيلسوفين- كان التفكير بوجه عام يتجه نحو الطبيعة، فكان المفكرين في هذا الوقت مؤمنين تماماً بأن شقاء الإنسان يرجع إلى الابتعاد عن الطبيعة والانحراف عن نواميسها قوانينها المقدسة(١) وبالتالي سعادته ستكون بالرجوع إلى الطبيعة مرة أخرى والبحث فيها.

ومن المعلوم أن الطبيعة تقال ويراد بها عدة أشياء، فقد تطلق ويراد بها – كما يرى ابن سينا – المبدأ الفعلي الأول الدائم لحركة الجسم وسكناته، من حيث إن الموجودات تتحرك وتسكن على نسق واحد، فتدل على أن فيها علة للحركة والسكون وعلة أطرادهما، فالفعل الباطن واطراد علامتان على الطبيعة(٢)، ومنها أن الطبيعة هي القوة التي تسري في الأجسام، ومن خلالها يصل الجسم إلى كماله الطبيعي، أو أن الطبيعة هي الصورة الجسمية للشيء، أو صورته الذاتية أو صورته النوعية، أو أنها حقيقة الشيء الواقعة في تعريف الخاصة، أو هي المفهوم الذي إذا أُخذ من حيث هو هو لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، أو إنها الحقيقة الإلهية الفعَّالة لكل صور العالم، أو كما يقول الأطباء إن الطبيعة هي القوة المدبرة للجسم من غير شعور، أو هي مزاجه، أو هيئته وتركيبه، أو ما يطلق عليها قوته الجسمانية(٣).

---

(١) رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، دار ابن سينا، مصر، الطبعة الأولي ١٩٩٧م، ص ١٣٤.

(٢) ابن سينا، النجاة، القسم الثاني في الحكمة الطبيعية، طبعة محي الدين صبري الكردي، ١٩٣٨م، ص ٩٨.

(٣) عبد المنعم حنفي، المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية، مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة ٢٠٠٠م، ص ٤٩١ وما بعدها.

وفرَق اسبينوزا بين نوعين من الطبيعة، الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة، فالطبيعة الطابعة عنده هي الطبيعة بالمعنى الشامل للعالم أو الوجود العام للعالم، أما الطبيعة المطبوعة فهي الطبيعة بوصفها مفهوماً للأشياء المتناهية أطلق عليها اسم الطبيعة المطبوعة، (فالجوهر من ناحية هو الطبيعة الطابعة من حيث هو مصدر الصفات والأحوال والأعراض، ومن ناحية أخرى هو الطبيعة المطبوعة من حيث هو هذه الصفات والأعراض)(١).

ومنها كذلك الفلاسفة الطبيعيين، الذين ينكرون وجود خالق لهذا الكون وينكرون البعث والمعاد والحساب والعقاب، ويرون أن الطبيعة هي التي تُحي وتُميت، وهؤلاء الذين أطلق عليهم القرآن الكريم الدهريين وقد وتكلم القرآن الكريم عن عقيدتهم تلك ورد عليهم في قوله تعالى: **(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)**(٢)، فموضوع الطبيعة إذن أو العلم الطبيعي هو النظر في الأجسام الموجودة بما هي موجودة.

وهو موضوع هذا البحث، أعني النظر في العالم والأجسام الطبيعية والبحث فيها لمعرفة ما يدل عليه هذا الوجود عند كلاً من هولباخ وهيوم، فهولباخ يعد أبرز فيلسوف فرنسي مادي(٣)، وكتابه "نظام الطبيعة" يعد أشمل وأكمل وأصدق عرض عن المادية في تاريخ الفلسفة بأسرها كما يرى صاحب موسوعة قصة الحضارة(٤)، وعلى الجانب الآخر يعد هيوم شخصية مهمة في تاريخ الفلسفة

(١) د. محمود حمدي زقزوق، دراسات في الفلسفة الحديثة، ص ١١٤ وما بعدها.

(٢) الجاثية ٢٤.

(٣) رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، ص ١٣٩.

(٤) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت، طبعة ١٩٨٨م، ج٣٨، ص ١٥٦.

الغربية، وكثيراً ما أشتهر عنه أنه تجريبي ملحد لاعتباره رائد من رواد التجديد الفلسفي في العصر الحديث.

ويتكون هذا البحث من مبحثين، وخاتمة على الوجه التالي:

المبحث الأول: نظام الطبيعة عند هولباخ.

- **المطلب الأول:** الترجمة لهولباخ.
- **المطلب الثاني:** نظام الطبيعة عند هولباخ.
- **المطلب الثالث:** علاقة نظام الطبيعة عند هولباخ بوجود الإله.

المبحث الثاني: نظام الطبيعة عند هيوم.

- **المطالب الأول:** الترجمة لهيوم.
- **المطلب الثاني:** تحليل هيوم للمعرفة.
- **المطلب الثالث:** نظام الطبيعة عند هيوم وعلاقته بوجود الإله.

الخاتمة: والتي تشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

ثم ثبت المصادر والمراجع.

المبحث الأول
نظام الطبيعة عند هولباخ

المطلب الأول
الترجمة لهولباخ

ولد بارون تيري دي هولباخ في إدشيم وترعرع في باريس عام ١٧٢٣م وتوفي عام ١٧٨٩ م، ولكنه في الأصل ألماني(١).

وعُمِّد باسم بول هنري دي تريش غون هولباخ، وكانت نشأته كاثوليكه، وكان جده ثرياً جمع ثروته من إدخال عرق الذهب من هولندا إلى فرنسا. وانتقل هولباخ إلى ليدن ليدرس العلوم واللغة الإنجليزية، وأخيراً استقر به المقام في باريس وأصبح من رعايا فرنسا، وحصل على النبالة ؛ وذلك باستثماره في شركة سكرتيري الملك، وسماه المحيطون به "البارون" لأنه كان يمتلك ضيعة تدر عليه الكثير من المال سنوياً.

فكان يبلغ مقدار دخله السنوي مائتي ألف جنية، فكانت ثروة كبيرة وقتها، ولذلك قيل عن أمواله إنها ثروة لم يستغلها أحد في أنفع ولا أحسن من العلم والفن.(٢)

ونلاحظ من ذلك كيف استغل هولباخ ثروته، فكان يجعل من بيته (جراند فال) أكبر مكان يقام فيه الولائم والعزائم، وكانت زوجته مدام دي هولباخ كل يوم أحد وخميس تحضر مائدة لاثنتي عشر ضيفاً على الأقل يتغيرون في

---

(١) رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، ص ١٣٣.

(٢) ول د ديورانت، قصة الحضارة، ج٣٨، ص ١٣٣، و انظر موسوعة الكشاف بتاريخ ١٢٣ ٢٠٢١١١٢.

https://www.kachaf.com/wiki.php?n=٥ed٩٤e٧e٦٧٧١٧٦٢٥af٠f١١d٩

الغالب كل مرة([1])، وكانت تقدم زوجته في كل مرة ما لذ وطاب، ثم تجلس في رُكن منعزل وتنصرف إلى شغل الإبرة دون أن تشترك مطلقاً فيما يقولونه من مناقشات، وبعدما ماتت زوجته في ريعان شبابها ظل هولباخ فترة يعاني يأساً شديداً، ولكن بعد عامين تزوج من أختها التي ظلت على نفس الطريق، ولم تكن أقل وفاءاً منها.

كان ضيوف هولباخ في الأغلب من قادة الحرب ضد المسيحية أمثال: ديدرو، هلفشيوس، دالمبير، بولانجيه، ومريليه، وسانت لامبرت، مارمونتيل، وجاء له في بعض الأحيان روسو، حيث كان هؤلاء يجتمعون يتجاذبون أطراف الحديث في الأمور الفلسفية، وكانت وقتها المناقشة منظمة، يحترم الجميع رأي الآخر ولا مجال لقطع حديث مَنْ يتكلم، وفي الوقت نفسه لم يكن بصالون هولباخ موضوعات يَحذُر الحديث فيها، وقيل عن هذه الجلسات (هذا هو المكان الذي تستمع فيه إلى أكثر مناقشة حرية وحيوية وتنويراً وتثقيفاً بالنسبة للفلسفة والدين والحكومة، ولم يكن للهزل أو المزاح الخفيف مجال هناك). وبلغ هذا الصالون شهرة حداً جعلت بعض زوار باريس الأجانب يستخدمون نفوذهم للحصول على دعوات لحضور هذا اللقاء.

فنجد مثلاً حضر في أوقات مختلفة هيوم، وجاريك، وهوراس، ولبول، فرانكلين، وبريستلي، آدم سميث، وهؤلاء قد أزعجهم في بعض الأحيان وجود هذا الكم من الملحدين.

ولذلك قال روميللي أن هولباخ كان يؤكد لهيوم حين كان يشك في الوجود الفعلي للملحدين (إنك تجلس بالفعل إلى المائدة مع سبعة عشر).

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ٣٨، ص ١٣٦.

وبالرغم من عدم ارتياح هيوم لهذا المجلس إلا إنه قال عن صالون دي هولباخ– ويكاد قوله يكون فيه مبالغة واسعة كما وصفه صاحب قصة الحضارة حيث إن إفادت هيوم عن صالون دي هولباخ أمر يدعو إلى الحيرة والارتباك – (إن رجال الأدب هنا في باريس مقبولون يرتاح المرء إلى معاشرتهم، وكلهم رجال ذوو شهرة واسعة يعيشون في انسجام تام بينهم جميعاً، ولا تشوب أخلاقهم شائبة، وقد يكون مبعث أعظم رضا عندك ألا يكون بينهم ربوبي واحد)، والحقيقة إن قول هيوم هذا قد يكون كما قال صاحب قصة الحضارة في البداية إنه على سبيل المجاملة لهولباخ مَضيفة ولا يعبر عن آراءه هيوم) بدليل انزعاجه من قبل بمناقشات الملحدين عنده.

وبالرغم من كراهية روسو للفلاسفة جميعهم تقريباً، إلا إنه احتفظ بإعجابه الشديد بشخصية هولباخ وخُلقه، إلى الحد الذي جعله يتخذه أنموذجاً لأحد الشخصيات اللاأدرية في أحد رواياته أعني شخصية فولمار في رواية (هلواز الجديدية).

وقال عنه جريم أنه لم يلتق قط برجل أكثر من هولباخ علماً واطلاعاً، ولم يرى قط رجلاً أقل منه اهتماماً بالتظاهر في أعين الناس.

والحقيقة إن هولباخ كان متواضعاً مخلصاً في سلوكه وعاداته، مهذباً في مناقشاته، كثير البر والإحسان، لدرجة أن جعل الجميع يرتاب في إمكانية أن يكون هو الذي كتب كل هذا الدفاع عن الإلحاد في كتابه (نظام الطبيعة).

ولكن عندما كان يبدأ هولباخ الكلام عن رجال الدين فكان لا يستطيع أن يُخفي غضبه الشديد منهم، وعندها يتخلى عن خلقه الرضي الجميل وطبيعته الحسنة التي شهد بها الجميع.

وكان من أسباب نظرته العدائية للكنيسة أنها بدأت بسيطرتها على التعليم تسد الطريق أمام المعرفة العلمية، خاصة وأن هولباخ كان مفتتن بالعلم، وتوقع من

ورائه نهوض سريع بحياة الإنسان؛ ومن هنا انتهز هولباخ كل فرصة مهاجمة الكنيسة ورجال الدين، فكتب مقالته (القساوة الدينية وتحطيم الجحيم)، وأصدر كتابه المسيحية في خطر (ولكن تحت اسم مؤلف آخر) وكان هذا الكتاب هجوماً مباشراً على التحالف بين الكنيسة والدولة، وفي هذا الكتاب أستبق هولباخ وصف ماركس للدين بأنه أفيون الشعوب، عندما قال فيه (إن الديانة هي فن تخدير الناس بالحماسة لتحول بينهم وبين مناهضة المساوئ والمظالم التي يعانون من حكامهم، ولم يعد فن الحكم إلا مجرد الإفادة من أخطاء وخمول الذهن والنفس، هي ما غرقت فيه الأمم بفعل الخرافة... وبتهديد الناس بالقوى الخفية استطاعت الكنيسة والدولة أن تفرضا على الناس أن يعانوا ويحتملوا في صمت ما يلقون من عنت وشقاء من القوى المرئية، وفرض عليهم أن يأملوا في السعادة في الحياة الآخرة، إذا وافقوا على أن يكونوا بائسين في هذه الحياة الدنيا)، ورأي هولباخ أن اتحاد الدولة والكنيسة هو سبب الشر الأساس في فرنسا وقال (إني بوصفي مواطناً أهاجم الديانة لأنها تبدو لي ضارة)، ورأي هولباخ أن سعادة الدولة تكمن في معادية العقل البشري ومناقضة الفضيلة والخلق القويم وقال (إن المسيحي يُلقن بدلا من الفضيلة والأخلاق القويمة الخرافات الخارقة القائمة على المعجزات والمبادئ والتعاليم البعيدة عن التصديق لديانة تتنافي تماماً مع العقل السليم، إن المسيحي من أول لحظة في دراسته يتعلم ألا يثق فيما تشهد به حواسه، وأن يخضع عقله ويعتمد اعتماداً أعمى على ما يقرره أستاذه، إن أولئك الذين حرروا أنفسهم من هذه الأفكار يجدون أنهم عاجزون لا حول لهم ولا قوة أمام الأخطاء التي رضعوها مع ألبان أمهاتهم).([1])

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ٣٨، ص ١٣٤ وما بعدها.

ونشر في عام ١٧٦٧م كتاب (كشف النقاب عن المسيحية) أو (المسيحية بعد أن أميط عنها اللثام) وهاجم هولباخ فيه الديانة المسيحية والكنيسة بكل قوة، وأعتبرها سبب كل الخرافات وأصل كل بلاء.([١])

وأخرج عام ١٧٦٧م كذلك كتاب سماه (اللاهوت سهل الحمل) سخر فيه هولباخ سخرية كبيرة من المبادئ الموجودة في اللاهوت، وأجمل كل اللاهوت في رغبة الكنيسة التسلط والسيطرة، ثم عام ١٧٦٨م نشر (العدوى المقدسة، أو التاريخ الطبيعي للدين) وفي نفس العام أصدر (رسائل إلى أوجيني) ثم عام ١٧٦٩م (بحث في الآراء المسبقة) ووضح فيه أن العلاج الوحيد لمساوئ الدين هو نشر الفلسفة، وفي عام ١٧٧٠م نشر كتابه الأهم (نظام الطبيعة) أو (منهج الطبيعة).([٢]) هذا الكتاب الذي سرد فيه أقوي دفاع عن الإلحاد([٣])، وفي عام ١٧٧٢م نشر هولباخ كتاب بعنوان (الأفكار الطبيعية في مواجهة الأفكار فوق الطبيعة) وحظي هذا الكتاب بشعبية كبيرة، ثم نشر كتابه (السياسة والطبيعة) عام ١٧٧٣، وأخيراً (الأخلاق العالمية) عام ١٧٧٦م.([٤])

ولم يرق لفولتير المؤمن بوجود الله هجوم هولباخ على الدين، فقام بالرد عليه في مقال بعنوان (الله) نشره في الإنسكلوبيديا، وهو نفسه ما فعله الإمبراطور الألماني فردريك الأعظم، في محاولة منهم للرد على هولباخ وما يقوله([٥]).

---

(١) رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، ص ١٣٣.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ٣٨، ص ١٣٤ وما بعدها.

(٣) جيمس كولنز، الله في الفلسفة الحديثة، ترجمة فؤاد كامل،، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بنيويورك، ١٩٧٣، ص ٢١٤.

(٤) رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، ص ١٣٤.

(٥) المصدر السابق، ص ١٣٣ وما بعدها.

المطلب الثاني
نظام الطبيعة عند هولباخ

يُعتبر كتاب بارون دي هولباخ " نظام الطبيعة" أو منهج الطبيعة أو قانون العالم المادي والعالم المعنوي هو أحد أهم الكتب التي نشرها لبيان موقفه عن الطبيعة، فطُبع هذا الكتاب في مجلدين كبيرين ولكن تحت اسم (مسيو ميرابو) على إنه المؤلف، وفي عام ١٧٧٠م قررت جمعية رجال الدين منع نشر أو تداول هذا الكتاب وغيره من الكتب المعادية للمسيحية، وأصدر لويس الخامس عشر أوامره إلى النائب العام حتى يتخذ الإجراءات فوراً، وكان هذا الكتاب وكتاب "فضح أسرار المسيحية"(١) لهولباخ أيضاً من ضمن سبعة كتب كان قد شجبها البرلمان الفرنسي، واعتبروها بعيدة عن التقوى مليئة بالتخريف، محرضة على الفتنة ؛ لأنها تؤدي إلى القضاء على فكرة الألوهية، وتثير الشعب للتمرد على ديانته، كما أنها تقضي على مبادئ الأمن العام والأخلاق، وظل الكتاب باسم (مسيو ميرابو) قرابة العشرين عاماً، الجميع يُخفي إنه كان لهولباخ.

وكان أول ما بدأ به هولباخ كتابه اعتباره أن الجهل بالطبيعة هو أخطر أنواع الجهل(٢)؛ لأن الجهل بالطبيعة يترتب عليه إيمان بالله (ﷻ) ومعتقدات دينية مثل الجنة والنار والخلود، والتي بدورها تدفعنا إلى فعل أشياء بطرق غير صحيحة، فالإنسان عندما يجهل العلم بالأسباب الطبيعة يذهب للبحث عن الآلهة لتبرر له جهله وعدم معرفته(٣) فربط إذن هولباخ بين الجهل والإيمان بالأديان.

---

(١) أو المسيحية بلا ستر، أو كشف النقاب عن المسيحية، جميعها مسميات لنفس الكتاب ولكن حسب اختلاف الترجمات.

(٢) هولباخ، نظام الطبيعة، المجلد الثاني ص ١٧،

(٣) هولباخ، نظام الطبيعة، المجلد الثاني ص ٣٤٩ وما بعدها.

ورأي أن الإنسان الذي عاش وسط مجموعة من الآراء والأفكار العمياء المضللة التي لُقنت له منذ كان طفلاً وظل مؤمناً بها مصدقاً بها، هو ما أفسد ذهنه وأضل عقله، خاصة إذا كان مَنْ لقنه هذه الأفكار مخطئون، أو كان لهم مصلحة في تضليله وخداعه(١).

ولذلك رأى هولباخ ضرورية البدء بالبحث في الطبيعة بكل شجاعة وتصميم، وأن نبحث بالأخص عن الوسائل التي نقضي بها على الأوهام والأباطيل التي لطالما آمنا بها والعلاج والحل يبدأ من الطبيعة نفسها- لأن الإنسان في نظره ليس سوى كائن مادي- ففي الطبيعة ومواردها يمكن أن نجد الترياق الشافي لكل الشرور التي جُبلنا عليها، فيقتلع من الجذور الأهواء التي كان النوع البشري فريسة لها، ويستبدل هذه الأهواء بالشجاعة واحترام العقل وحب الوصول للحقيقة، فلا يعود الإنسان ألعوبة لخيالات توجه لها سلطان خارجية.(٢)

ولذلك كان البحث في الطبيعة هو الأساس عند هولباخ لكل آرائه لأن بحثه في الطبيعة جعله ينكر كل ما ورائها، وكل ذلك من خلال صياغة لمعني مبتكر لخصائص المادة يختلف إلى حد ما عما كان معروف وقتها. فالمادة هي الأساس لأنها هي مَنْ تصنع الأجسام بحُكم صفات أولية معينة، وتُحدث انطباعات حسية لدينا، فالطبيعة تتكون من المادة والحركة، والمادة في نفس الوقت متحركة بذاتها، ولا يقدم الكون لكل الموجودات سوى المادة والحركة(٣) فكل شيء يمكن أن يُفسر بالمادة والحركة، وهما في نفس الوقت

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج٣٨، ص ١٤٠ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق.

(٣) هولباخ، نظام الطبيعة، المجلد الثاني ص ١٥.

أزليتان أبديتان، وتخضع الحركة والمادة لقوانين ضرورية، ولا مجال لأي صدفة(١).

وعرف هولباخ المادة بأنها (كل ما يؤثر على حواسنا بأي شكل كان)، وبما أن كل شيء في الكون في حركة دائبة، فإن جوهر المادة هو أن تعمل، ولا شيء في المادة ساكن، ولو تصورنا أن شيء ما في المادة ساكن فهو لا يبقى كذلك(٢)، فالمادة إذن ليست شيء خامل ينتظر من يَبعث فيه الحركة من الخارج بل هي في حركة دائمة(٣).

وكنتيجة لذلك تكون الأجسام هي العلل، والحركات هي المعلولات، وقد تكون الحركات عللاً؛ لأن العلة هي الكائن الذي يحرك آخر، أو يُحدث فيه تغيير ما، والمعلول هو التغيير الذي تحدثه الحركة بجسم ما، أو يُحدثها موجود بآخر(٤) ومن هنا يجب فهم العالم من حيث المادة والحركة، لأن ببساطة فهمه من خلالهما هو فهمه من حيث العلل والمعلولات، لذلك قال في البداية إن الطبيعة تتكون من المادة والحركة، والطبيعة تُقدم لنا كم هائل ومتواصل من العلل والمعلولات.

---

(١) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار العالم العربي، مصر، الطبعة الأولي ٢٠١١، ص ١٩١

(٢) ول ي ورانت، قصة الحضارة، ج٣٨، ص ١٤٢.

(٣) رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، ص ١٣٤.

(٤) هولباخ، نظام الطبيعة ترجمه من الفرنسية : اتش دي رونبنسون، مطبعة برت فرانكلين، نيويورك ١٩٧٠، المجلد الثاني، ص ١٦ System Of Nature, translated by H.D Robinson, New York: Burt Franklin, ١٩٧٠ نقلاً عن موسوعة ستانفرد للفلسفة، ترجمة منال محمد خليف، منشور بمجلة الحكمة ص ١١.

وكل موجود من الموجودات لا يمكن أن يفعل ويتحرك إلا بكيفية مخصوصة، وكل موجود يخضع في حركته لقوانينه الخاصة ويستمر على هذا النمط إلى أن توقف علة أقوي حركته هذه(١) فالمادة الموجودة منذ الأزل هي التي تقوم بكل الأعمال التي نعزوها مخطئين إلى الله(٢). ولكنه لم يتكلم أو يفكر عن الذي أوجد المادة وأودع فيها تلك الصفات، أو من الذي وضع القوانين التي تسير عليها المادة إلى الآن.

ومما سبق يتضح أنه يكاد يكون رافضاً لمبدأ "تجانس المادة" الذي قال به ديكارت، وأقرب إلى القول بمبدأ "اللامتمايزات" أو "اللامتماثلات"(٣) الذي قال به ليبنتز.(٤)

وقد ميَّز هولباخ بين الصفات الأولية والثانوية للمادة، فالصفات الأولية في جميع المواد، تتشابه مع الصفات الثانوية في بعض الأجسام فقط، فالنار مثلاً تتمتع بخاصية مميزة عن جميع المواد الأخرى، تتمثل في أنها تمكننا دون باقي الأجسام الأخرى من الإحساس بالحرارة، وكذلك الضوء، فالنار بجانب اشتمالها

(١) إيميل برييهه، تاريخ الفلسفة – القرن الثامن عشر، ترجمة جورج طربيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٩٣ ج٥، ص ١٥٨.

(٢) جيمس كولنز، الله في الفلسفة الحديثة، ص ٢١٥.

(٣) وأصل هذا المبدأ هو مبدأ (السبب الكافي) وهو أن ما يوجد إنما يوجد عن سبب كافي، ويتولد عن هذا المبدأ مبدأين، الأول (مبدأ الأتصال) وهو أن الانتقال متصل في الطبيعة بلا طفرة، والثاني (مبدأ اللامتامثلات) وهو أنه ليس هناك في الطبيعة شيئان متماثلان من كل الوجوه، وإلا لم يتمايزا، بل يجب أن يفترقا بفارق كيفي ذاتي مطلق فوق افتراقهما بالعدد، انظر د.محمود حمدي زقزوق، دراسات في الفلسفة الحديثة، ص ١٢٩.

(٤) انظر يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ١٣١.

على الصفات العامة التي تشترك فيها كل الأجسام كالامتداد والقسمة والشكل، وفي الوقت نفسه تتميز بصفات خاصة بها ألا وهي الحرارة والإنارة([1]).

وإذن نظام الطبيعة عند هولباخ يتطلب أن تُفهم الطبيعة البشرية من منظور القوانين، وأن يُفهم الفعل البشري كذلك في ظل قوانين الحتمية التي يتطلبها نظام الطبيعة، والذي يسير وفق نظام محدد وبترتيب ضروري صارم، مبني على أساس ماهية الأشياء، ولذلك حاول وضع يده على سلسلة الماهيات هذه، ولذلك بدأ من المادة محاولاً هدم الحجة التي كان يستخدمها فلاسفة عصره في إثبات وجود الله أعني حجة العلل الغائية([2])، وكان يرى أن التصديق والإيمان بفكرة كوجود إله خالق للعالم ليس أكثر من الرعب العام إزاء الكوارث الطبيعة وما يحدث في الكون نتيجة الجهل بالطبيعة وبقوانينها([3]) فمن يجهل ما يحدث حوله في الطبيعة يلجأ للبحث عن قوى عليا ويقول إنها هي السبب في كل ما يحدث حوله كما يعتقد هولباخ.

ومَنْ يعرف الطبيعة، ويعرف أنها مكونة من المادة و الحركة، عندها يستبعد كل ما هو موهوم من الروحيات المتعالية على المادة، و الطبيعة كلاً متكاملاً يشمل كل العلل الفاعلة، فإن المصدر الرئيس للحركة ليس إلا نفسها([4])، فلا حاجة إذا للبحث عن علة خارجة عنها.

وهولباخ في ذلك يخالف ديكارت الذي كان يرى أن المادة ما هي الامتداد الجامد الذي لا يتلقى الحركة إلا من الخارج([5]).

---

(١) هولباخ، نظام الطبيعة، المجلد الثاني، ص ٢٤.

(٢) إيميل برييهه، تاريخ الفلسفة – القرن الثامن عشر، ج ٥ ص ١٥٩.

(٣) جيمس كولنز، الله في الفلسفة الحديثة، ص ٢١٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٢١٥.

(٥) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ٨٢ وما بعدها وانظر، محمود حمدي زقزوق، دراسات في الفلسفة الحديثة، ص ٩٦ وما بعدها.

والأمر لا يتعلق فقط بالجانب المادي، ولكن هولباخ رأي إنه حتى عملياتنا الذهنية، ليست سوى حركات في ذهن الإنسان المادي، وكل الأفعال البشرية محددة تحديداً آلياً كاملاً، والنفس ليست إلا البدن المادي منظوراً إليها من جهة بعض وظائفها، وأصل فكرة الأرواح جاءت من الهمج، لكي يفسروا المعلولات التي لا يستطيعون ملاحظة عللها الطبيعية(١).

ومن هنا اعتقد هولباخ أن السبب الرئيس في ظهور الخلاف بين الكنيسة والعلم هو ظهور هذه النزعة الإنسانية، لأن هذه النزعة تكتفي بالطبيعة، وتستغني عما ورائها، وهذا الخلاف بين الكنيسة والعلم ليس بجديد، والحقيقة أن الخلاف بينهما في تفسير بعض ظواهر الكون وتعليلها موجود منذ القرن الخامس عشر الميلادي، خاصة بعد ظهور الاكتشافات العلمية الحديثة والاتجاه للمذهب التجريبي الذي يعتمد على الملاحظة والافتراض ثم التجربة للوصول إلى النتائج، فالعلوم الطبيعة وقتها كانت لا تخرج عن توجه الكنيسة الذي اعتمد بدوره على آراء أرسطو، فظهر الخلاف وبدأت محاولات الفصل بينهما في مختلف العصور، فحاول فرنسيس بيكون الفصل بينهما في القرن السابع عشر، ونبه ديكارت على وجود استقلال متبادل بين العلم والدين، وعندما جاء القرن الثامن عشر، تملك العلم وأصبح له من القوة التي جرأت البعض عليه، وجعلتهم يرفضون الدين، وظنوا أن الدين يرفض العقل، فظهر مذهب التأليه العقلي، والذي كان أثرها ظهور المادية عند هولباخ وغيره في القرن الثامن عشر(٢).

---

(١) وليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، تقديم إمام عبدالفتاح إمام، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٠م، ص ٢٣٦ وما بعدها.

(٢) د.أحمد رمضان، العلم والدين، بحث منشور بالمجلة العربية للدراسات الإسلامية والشرعية، العدد ٣ إبريل ٢٠١٨، ص ٢٨.

فأتباع هذه النزعة ظنوا أنه لا حاجة إلى الإله أو الإيمان طالما أنهم يستطيعون تفسير الكون بكل مراحله في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة، فالوسائل العلمية الحديثة تكشف لنا عن السبب وراء كل حادث يقع، ويمكن معرفة هذا السبب عن طريق التجربة، فوصلوا أن الكون تابع لقوانين المادة والطبيعة بعدما كان الاعتقاد السابق أن الكون خضع لأحكام الإله([1]).

وبالتالي فإن هذه القوانين هي الأساس لجميع الظواهر التي تقع، سواء كانت تلك الظواهر طبيعية أم حيوية أم خلقية أم اجتماعية أم بشرية أم حيوانية، وتلتمس الروابط المشتركة في علاقتها بالطبيعة([2]) فلا حاجة عندهم للبحث عن إله لتفسير الظواهر.

والعالم المادي من أوله إلى آخره بكل صورة ومظاهره ليس إلا مظهر أعمى من مظاهر الطبيعة، بل إنه لا يوجد فيه أي أثر للإله([3]).

فإيمان دي هولباخ إذن بالمادية الخالصة، هو السبب في إنكاره الاعتراف بوجود إله، بل وإنكار وجود أي شيء وراء المادة.

(١) أندرو ديكسون وايت، بين العلم والدين، مؤسسة هنداوي طبعة ٢٠١٤م، ص ٩ وما بعدها.

(٢) إيميل برييهه، تاريخ الفلسفة- القرن الثامن عشر، ج٥ ص ١٥٦ وما بعدها.

(٣) محمود عتمان، الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٩٨٧م، ص ٣٥ وما بعدها.

المطلب الثالث
نظام الطبيعة عند هولباخ وعلاقته بالإله

من خلال ما سبق يتبين كيف أثبت هولباخ أن الكون يعمل ويسير وفق أسباب الطبيعة وحدها، وأن كل قوانين الطبيعة لا تقدم للدارسين إلا مجرد تعاقب ضخم ومتصل غير منقطع من الأسباب والنتائج، وفي الوقت نفسه يرى هولباخ من الصعب علينا أن ندرك كيف تكون المادة الجامدة الصماء فيها حياة، ولكن في الوقت نفسه يكون من الأصعب أن نصدق أن الحياة خلق خاص، أو أن البشر وجدوا لأن موجود خفي خارج عن الكون المادي هو الذي أوجده.

وإذا كان من الصعوبة بمكان أن يعرف الإنسان كيف تحس المادة أو تشعر، ولكن في الوقت نفسه فإن سائر خواص المادة من المرونة والمغناطيسية والجاذبية والكهربية وغيرها ليست أقل صعوبة في فهمها أو إدراكها من الشعور والإحساس.

وبما إن الإنسان كائن مادي صرف، فإنه بالطبع خاضع لنفس القوانين التي تحكم سائر العالم.

ومن هنا رأى هولباخ استحالة أن يكون جسم مادي كالإنسان، وجسم غير مادي متفاعلان أحدهما مع الآخر.(١)

بمعنى أنه لا يمكن قبول أن يكون هناك إله لا مادي خارج عن الماديات هو الذي خلق الإنسان المادي وأوجده وهو الذي أعطي له صفاته التي يتميز بها. فوقع هولباخ في نفس فكرة الثنائية التي حيرت الكثير من الفلاسفة في العصر الحديث، وكانت هي أصل لكثير من النظريات التي جاءوا بها لمحاولة التوفيق بين الجانب المادي والجانب الروحي في الإنسان، أو محاولة إيجاد طريقة

(١) ول ديروانت، قصة الحضارة، ج ٣٨، ص ١٤٣.

للتواصل بين العالم المادي والعالم المعنوي، ولكن هولباخ كان يري إنه لا يمكن أن يجد حلقة الوصل بين الإنسان المادي والإله الغير المادي الذي خلقه، فلجأ للحل الأسهل وهو رفض أن يكون هناك إله غير مادي خالق للكون ومُنظمه على الوجه الذي يوجد عليه الآن، بخلاف فلاسفة العصر الحديث الذين حاولوا أن يجدوا حل عملي لهذا الأمر، فلجأ ديكارت مثلاً لنظرية عجيبة، مستعيناً في ذلك بـــ (الغدة الصنوبرية) الموجودة في المخ، ورأى أنها هي التي تقوم بعملية التأثير المتبادل بين الجانب المادي وهو الجسم، والجانب الروحي وهو النفس في الإنسان، وتقوم هذه الغدة بتلقي الأوامر من النفس، وتعمل بدورها على توصيلها إلى الأعصاب الموجودة في العضلات، ومن الناحية الأخرى تقوم الأعصاب باستقبال الأوامر الواردة إليها من العالم المادي الخارجي وإرسالها إلى النفس أو الروح([1]).

ولكن اسبينوزا لجأ لحل آخر لمحاولة التوفيق بين الجوهرين الموجودين، أعني الجوهر المادي والجوهر العقلي، فلجأ اسبينوزا للهروب من هذه المشكلة إلى الإقرار بوجود جوهر واحد فقط، وجعل كل الصفات الموجودة في الجوهرين موجودة بدورها في هذا الجوهر الواحد الذي أقر بوجوده، فخرج اسبينوزا بهذا بمذهب أشبه بوَحدة الوجود. ([2]) فهذا الجوهر فيه كل الصفات المادية واللامادية في نفس الوقت.

أما ليبنتز فعندما أراد حل هذه المشكلة، حاول إيجاد رابط لهذه العلاقة، فلجأ لنظرية (التناسق الأزلي) وهذه النظرية تقتضي وجود خالق منسق بين الذرات

(١) د. محمود حمدي زقزوق، دراسات في الفلسفة الحديثة ، ص ١٠١.
(٢) المصدر السابق، ص ١١٣.

أو الموناد‌ات كما سماها– قدَّر في الأزل التطابق المتناسب لكل الذرات بعضها البعض(١).

والحقيقة إن هذه الفكرة التي قال بها ليبنتز تُعتبر شكلاً من أشكال برهان الإبداع والنظام، فالموناد‌ات مستقلة بعضها عن بعض، ولكنها تتغير من الداخل فينتج عنها حالات، وتفسير توافق هذه الحالات لا يفسر إلا بافتراض الله خالق ومنسق المناد‌ات.

ووصف ليبنتز الله بأنه المناداة العظمي الغير متناهي، وهو فوق كل المناد‌ات المتناهية، وهو في الوقت نفسه الذي يحفظ التناسق بين المناد‌ات المختلفة الإنسان والحيوان والنبات والجماد.

فلو لم يكن الله موجود لانتهى العالم منذ الأزل، فالله هو الضامن لحفظ نظام العالم.

وهو الأمر الذي قال الله تعالى عنه: {**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**}(٢).

فالله تعالى إذن هو الحافظ لنظام العالم.

فهذا الدليل اتخذه ليبنتز وغيره الكثيرين دليل على وجود الله (ﷻ)، واستخدمه هولباخ كذلك ولكن بطريقة خاطئة لينفي من خلاله وجود الإله. فرأى أن الإنسان هذا الكائن المادي خاضع لنفس القوانين التي تحكم الكون، ولا يمكن أن يكون هناك أي نوع من أنواع التفاعل بين الجسم المادي سواء أكان للإنسان أو العالم والكائن آخر غير مادي.

وما يقال عن الروح الموجودة بداخل الإنسان فهي مجرد أمر ينظم الجسم ونشاطه، ولا وجود لها مستقل بعيد عن جسم الإنسان، ومن هنا رفض هولباخ

---

(١) د. محمود حمدي زقزوق، دراسات في الفلسفة الحديثة، ص ١٣٩.

(٢) سورة فاطر، الآية ٤١.

أي ما يقال من أن الروح تحس فتتألم أو تُنعم بعد فناء الجسم، ومن يقول هذا شبيه بمن يقول إن الساعة التي تتهم تستمر دقاتها، وتبين مرور الوقت. ورأي هولباخ إن اعتقادنا إن الذهن ليس موجود مادي عوق معالجتنا للأمراض العقلية؛ لأننا إذا اعتبرنا أن الذهن وظيفة من وظائف الجسم فإنا بذلك نُمكن علم الطب من شفاء الكثير من الأمراض العقلية، لأن عندما نعتبر الذهن جسم، ويكون خاضع هو الآخر للقواعد الكونية وقاعدة الأسباب والنتائج الطبيعة(١).

وعلى الجانب الآخر اعتقد هولباخ أن الإنسان لا يتمتع بأي حرية إرادة، فالحقيقة إنه مجرد لعبة في يد القدر، فالإنسان لا يمتلك بداخله قوة دافعة مستقلة تمكنه من قيام بأفعاله المختلفة، وأن الروح أو النفس أو الذهن كما يعتقد هولباخ تندثر بدورها مع اندثار الجسم، والروح هي مجرد جسم قادر على أن يفكر ويشعر ويشاء، والإيمان بوجود مادة قادرة على التفكير أسهل كما يعتقد من الإيمان بالمسيحية، أو ما تقول به من الازدواجية بين الروح والجسد(٢).

وتكلم باستفاضة كبيرة عن مبدأ الجبر، أو فكرة الحتمية في كتابه (نظام الطبيعة)، وقال (إن حياة الإنسان قضت عليه الطبيعة برسنه على سطح الأرض دون أن يكون لديه القدرة على التحرك عنها قد أنملة، إنه ولد دون رضاه، إن كيانه وتنظيمه لا يتوقف ألبته على نفسه، إن الأفكار التي تخالجه تأتي قسراً لا طوعاً، وعادته واقفة تحت سيطرة الذين يحملونه على التخلي عنها، ويعتدل الإنسان ويتغير بلا انقطاع نتيجة أسباب وعلل مرئية أو خفية ليس له سلطان عليها ولا تحكم فيها، وهي بالضرورة تنظم أسلوب وجوده وتصبغ تفكيره بصبغة معينة، وتقرر طريقة تصرفه وأفعاله، فهو طيب أو رديء، سعيد أو

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج٣٨، ص ١٤٣ وما بعدها.

(٢) رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، ص ١٣٣، ١٣٥.

تعيس، عاقل أو أحمق، متعقل أو غير متعقل دون أن يكون لإرادته دخل في أي من هذه الحالات المختلفة)([1]).

فالإنسان إذن في كل مراحل حياته ما هو إلا عمل للطبيعة، وفي نفس الوقت خاضع لقوانينها، ولا يستطيع أن يتهرب من تلك القوانين بحال من الأحوال. ومن هنا فالأفضل للإنسان بدلاً من أن يضيع وقته ومجهوده في البحث خارج نفسه عن ما يوفر له السعادة، أن يبحث داخل نفسه، أو يدرس قوانين الطبيعة ويتأملها ويعرف القوانين التي تسير عليها، ليفهم نفسه ويفهم ما يدور حوله. وعليه أن يتقبل كل ذلك مما تفرضه عليه الطبيعة من وصاية في صمت، ويكون متيقن في النهاية أنه لا يستطيع هو أو غيره أن يغيروا شيء مما فرضته عليهم الطبيعة، فيرضي مبتهجاً بما يحدث حوله، وفي نفس الوقت يرضى بأن هناك أمور تحدثها فيه الطبيعة وعلل وأسباب خفية، فلا يضيع وقته بمحاولة اختراق تلك الحُجب ولا الكشف عن تلك العلل الخفية. فيستسلم تماماً لتلك القوانين التي يدركها والتي لا يدركها([2])، لأن القول بالحرية إنما هو إنكار وعناد للنظام الكوني الطبيعي([3]).

أما عن **الأخلاق** عند هولباخ، فقد تكلم عنها في كتابه (نظام الطبيعة) ثم عاد وأفرد لها كتاب (الأخلاق العامة) والأخلاق هي إرادة الهناء للغير([4])، والفضيلة هي كل ما يعود على أفراد المجتمع بالخير([5]) ورفض هولباخ أي ربط بين الفضيلة أو الأخلاق والدين، ورأى أن بناء الفضيلة والأخلاق على المعتقدات

(١) نظام الطبيعة، الفصل الحادي عشر، نقلاً عن ول ديورانت، قصة الحضارة، ج٣٨، ص ١٤٣ وما بعدها.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج٣٨، ص ١٤٤ وما بعدها.

(٣) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ١٩١.

(٤) إيميل برييه، تاريخ الفلسفة – القرن الثامن عشر، ج٥ ص ١٦٠.

(٥) رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، ص ١٣٥.

الدينية أمر فيه مخاطرة كبيرة، لأن المعتقدات الدينية قابلة للتغير، وقد ينهار البناء الأخلاقي القائم على أساسها كلما حدث لها تغير، وذلك لأن الإنسان عندما يكتشف زيف الأمور التي قامت عليها ديانته، عندها سيعتقد أن الأخلاق والفضائل وهمية وزائفة كذلك مثل الدين الذي قامت عليه، لذلك رفض تماماً ربط الأخلاق والدين، مما سيكون دافعاً للانحلال والفساد والفسق والفجور. ولم يكتفي بذلك بل جعل الدين هو مصدر الرذيلة والتعاسة، وأن الفضيلة لا يمكن تعزيزها والوصول إليها إلا عند الأشخاص الذين يعتمدون على معارفهم المباشرة للوصول إلى المعرفة دون ربطها بأي دين، وبالتالي فعلى الإنسان أن يحاول الوصول إلى الفضيلة والسعادة في هذا العالم الذي نعرفه، وعلى الإنسان أن يكون زاهداً معتدلاً معقولاً، فلا يجب مسرفاً في الملذات، بل عليه أن يمتنع عن كل ما يضر نفسه أو الآخرين(١).

ورفض فكرة الاستعداد المزدوج أو أن الإنسان يولد وبداخله حاسة التميز بين الخير والشر، وهي نفسها فكرة إسلامية تكلم عنها القرآن الكريم في أكثر من موضوع كما في قوله تعالى: {**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا - فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**}(٢)، ورأى أن الضمير بداخل الإنسان ليس صوت الله، بل هو صوت رجال الشرطة، وما يتخيل الإنسان أنه ضمير بداخله إنما هو في الحقيقة تراكم لآلاف التحذيرات التي والأوامر التي تلقاها منذ ولادته(٣).

ولا يعني هذا أن نفقد الأخلاق، ومن هنا سعى هولباخ لاستحداث نظام جديد يحل محل الأخلاق الدينية التي رفضها تماماً، فيجب علينا أن نتعلم الأخلاق الطبيعية بدلاً من الأخلاق اللاهوتية، وبدلاً من تحريم الزنا والجرائم والرذائل

(١) هولباخ، نظام الطبيعة، المجلد الثاني ص ١٦٢.

(٢) سورة الشمس، الآيتان ٧ – ٨.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ٣٨، ص ١٤٨ وما بعدها.

لأن الله حرمها، يجب علينا أن نقول إن كل إفراط يؤذي الإنسان ويحول دون صيانته والإبقاء عليه، ويجعله جديراً بالازدراء في عين المجتمع، وهو كذلك إفراط يحرمه العقل، وتحرمه الطبيعة التي تريد للإنسان أن يعمل من أجل سعادته الدائمة([1]).

فربط هولباخ بين السعادة والحفاظ على الذات، فترتقي الأخلاق وفقاً "للمصلحة الذاتية المستنيرة" مقابل الفشل في التعرف على مصلحة الإنسان نفسه، أو القواعد الأخلاقية للضرورات المفترضة التي تملي وسائل السعادة أو الحفاظ على الذات؛ لأن الإنسان عندما يجهل مصلحته الحقيقية، تحضر شهوته مع ذلك القطار الطويل من الرذائل، مخاطراً بسعادته الدائمة.

ولأن الناس يرغبون فيما تقدمه لهم الأخلاق من السعادة، فسيكون لديهم الدافع لفعل ما هو أخلاقي إذا عرفوا ما هو، ولذلك من يجهلون ما هو أخلاقي هؤلاء هم الفاشلون، ولذلك يؤكد مرة أخرى أن الجهل بالطبيعة على وجه الخصوص هو أخطر أنواع الجهل، ويعني هنا الجهل بأسباب الخير والشر فيها، فالطبيعة هي مبدأ ومنتهي فلسفته([2]).

والوصول إلى الفضيلة والسعادة –في هذا العالم الذي نعرفه– يكون بعد تطبيق أفكار العالم المادي على العالم المعنوي كذلك، الأمر الذي من شأنه أن يُشيِّد أخلاقاً جديدة بعيدة عن كل الأديان كما يعتقد هولباخ؛ لأن الإنسان خليط من المادة، وتنظيمه يقوم به كل عضو منفرداً، (وماهيته هي الإحساس والتفكير والفعل، وروح كل إنسان ينجم عن حساسيته للمادة، وهذه تتبع بدورها المزاج، والقانون الوحيد لنشاطه هو حب الذات، والخوف من الألم، وهو محاط بموجودات حسية مختلفة عنه، غير متساوية فيما بينها، فهذه اللامساواة هي

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ٣٨، ص ١٣٨.

(٢) هولباخ، نظام الطبيعة، المجلد الثاني، ص ٤٠ وما بعدها.

الدعامة التي ينهض عليها المجتمع بحكم حاجة الناس إلى بعضهم بعضاً)([1])، ويظهر مرة أخرى تأييده لمبدأ اللامتماثلات عند ليبنتز.

ويعتقد كذلك هولباخ أن الأفراد لا يهدف أياً منهم إلى أن يوصل السعادة إلى غيره أو اللذة أو الهناء إلا إذا كان في ذلك آثر عائد عليه، فهذه هي الفكرة العامة للأخلاق عند هولباخ، التي يحاول من خلالها الوصول إلى أخلاق عامة كلية مشتركة.

ويكاد يكون هولباخ بأفكاره هذه مؤسس لمذهب النفعية أو البرجماتية التي ظهرت بعد ذلك في القرن العشرين، فالإنسان لن ينفع غيره أو يساعده أو يوصل له سعادة إلا إذا كان في النهاية سيحصل على مقابل، فكيف كان يظن أن يصل من وراء ذلك إلى أخلاق كلية ؟!

وعلى الجانب الآخر نادى هولباخ بضرورة استبدال المسيحية بنظام تعليمي يقوم على الأنانية المستنيرة، أو الأنانية التي لا تتعارض مع مصلحة الجماعة([2]).

وبما إن هولباخ لم يكن يعتقد بوجود إله، فبحث لذلك عن مصدر جديد يتوافق مع مذهبه عن مصدر الإلزام الخلقي، فوجد بعد البحث أن مسألة الأخلاق ترجع إلى التشريع والقوانين، فيجب أن يكون هناك نظام ثواب وعقاب، بحيث يجد الإنسان نفسه مدفوعاً بسائق اللذة إلى إتيان أفعال نافعة للآخرين، وإلا فلن يفعل أحد الخير لغيره أبدا إذا لم يكن هناك منفعة تعود عليه، وهي اللذة، وبالتالي يجب أن تكون هناك سلطة علمانية، تنوب عن السلطة السياسية والتربوية التي كانت ولازالت في يد السلطة الدينية، وهذه السلطة العلمانية المستنيرة تراعي بواعث الناس للفعل والمنفعة الاجتماعية، والمراد

(١) إيميل برييهه، تاريخ الفلسفة – القرن الثامن عشر، ج٥، ص ١٥٩.

(٢) رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، ص ١٣٣.

بالمنفعة الاجتماعية هنا هي التقاليد والأعراف القائمة بأسلوب مأمون ومعقول([1]).

وأخيراً فيما يتعلق بالأخلاق أود أن أؤكد أن هولباخ أعتقد أن الإيمان يؤدي إلى الانحلال الأخلاقي، في الوقت الذي رفض فيه وجود أية علاقة بين الإلحاد والانحلال الأخلاقي، لأن الإلحاد يشجع على إتباع الفضائل الاجتماعية.([2])

ووضع هولباخ لنفسه وللمؤمنين بأفكاره قانوناً أخلاقياً يقول فيه (عش لنفسك ولرفيقك فإني – أي الطبيعة– أقر ملذاتك مادامت لا تؤذيك، ولا تؤذي الآخرين الذين جعلتهم ضروريين من أجل سعادتك ... وكن عالاً لأن العدل يعزز الجنس البشري ويدعمه... وكن طيباً لأن طيبتك ستجذب كل قلب إليك، وكن متسامحاً حيث إنك تعيش بين كائنات ضعيفة مثلك، وكن متواضعاً لأن كبرياءك تجرحك حسب الذات كل من حولك ... وأعف عن الإساءة والأذى، وأحسن إلى من أحسن إليك حتى تكسب صداقته.

وكن معتدلاً ومقتصداً في شهوتك عفيفاً، فإن الانغماس في الشهوات والإسراف والإفراط سوف يدمرك ويقضِ عليك، ويجعلك مدعاه للاحتقار)([3]).

وكنتيجة حتمية لفلسفة هولباخ المادية دحض هولباخ الأديان بشكل عام، والمسيحية بشكل خاص، وأنكر الاعتقاد بوجود الإله وخلود النفس، منكراً كل النظريات التي تتكلم عن وجود عالم وراء الطبيعة، واستهان برجال الدين، مؤكداً أن أصل العالم ما هو إلا "المادة المتحركة" فهذه المادة تتحرك من تلقاء نفسها، وأن الموجودات متصلة اتصالاً آلياً ميكانيكاً محضاً، واعتقد هولباخ أنه بذلك المنهج سيكفل لنفسه وللبشرية السعادة الكاملة، والحقيقة إن هذه النظريات

(١) إيميل برييهه، تاريخ الفلسفة – القرن الثامن عشر، ج٥ ص ١٦٠.

(٢) رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، ص ١٣٨.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ٣٨، ص ١٤٩ وما بعدها.

وأشبهها استُغلت لتدمير البشرية، فالعلم يستطيع أن يستخدم المنهج التجريبي نعم في الأشياء المحسوسة، فإذا تجاوز عالم الحس، خرج عن العلم وأصبح كل ما يقال بعد ذلك مجرد أوهام وافتراضات لا دليل عليها؛ لأن بعض موضوعات الدين خارج نطاق الحس، أعني موضوعات الدين لاتي تتعلق بما وراء الحس والطبيعة والمادة(١)، والإنسان ما لجأ إلى هذه التفسيرات إلا عندما جهل بالأسباب الطبيعية وعجز عن الوصول إليها، ورأى هولباخ أن وجود مثل هذه التفسيرات الروحية للأحداث هو الأمر الذي يقف أمام التقدم في البحث العلمي الحقيقي، ويعوق كذلك التقدم الاجتماعي الذي يجعل التقدم العلمي ممكناً.(٢)

ورفض في الوقت نفسه الفكرة التي تتكلم عن إمكانية أن نستدل على وجود الإله من فكرتنا عنه، مثلما لا نستطيع أن نصل إلى نتيجة وجودية عن أبو الهول مثلا لمجرد فكرتنا عنه، وأن كائنا متناهياً مادياً كالإنسان فلا يمكن بحال أن يُكوِّن فكرة عن كائن لا متناهي، و أن الإنسان لا يستطيع بعقله أن يتصور كائناً إلهياً لا مادياً، وكل ما يفعله أن يُشخص الصفات الإنسانية في صورة مكبرة(٣)، مخالفاً بذلك ديكارت الذي اعتقد ذلك.

ورد هولباخ في كتابه "فضح أسرار المسيحية" أو "كشف النقاب عن المسيحية" على أولئك الذين قالوا إنه لابد من دين صالح أو طالح للشعوب، وأن هذه الأديان هي الكابح الطبيعي الضروري لأرواح العوام البسيطة أو الفظة، بأن (الشعب لا يقرأ أكثر مما يفكر، ولو وجد بين الشعب رجلاً قادراً على أن يقرأ مؤلفاً فلسفياً، لما أصبح وغداً يخشى جانبه، إن المتعصبين هم الذين

(١) هولباخ، نظام الطبيعة، المجلد الثاني ص ٣٤٩ وما بعدها.

(٢) وليم كارلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص٢٣٧ .

(٣) جيمس كولنز، الله في الفلسفة الحديثة، ص ٢١٤ و ٢١٦ .

يقومون بالثورات ... أما المستنيرون والمتجردون والعقلاء من الأشخاص فهم من أنصار السكون)([1]).

فلا مكان للإله عند هولباخ، وكنتيجة لكره هولباخ الشديد لمذهب التوحيد بل كل المذاهب الربوبية حتى مذهب وحدة الوجود، الأمر الذي جعل المعاصرين له أن يطلقوا عليه "العدو الشخصي لله (ﷻ)"، ولم يكتف هولباخ بكرهه ومقته للإله بل إنه حاول إثارة كل الحجج القديمة التي كان يقول بها الملحدين على مر الزمان([2]).

ورأى هولباخ (أن الدين نظاماً سلوكياً أخترعه الخيال والجهل لتهدئة تلك القوي المجهولة التي يعتقد أن تتحكم في الطبيعة) فالدين يرجع دائماً – كما يعتقد– بوجود إله غاضب يريد المؤمنون به تهدئه غضبه، و هذه الفكرة المضحكة هي الأساس الذي يُقيم عليه الكهنة معابدهم، فأصبح الناس كالسكارى، وجعلهم ذلك يتقبلون الشرور التي تحدث لهم على وجه الأرض رجاءً في الحياة السعيدة في العالم الآخر([3]).

ورفض كذلك الدين الطبيعي، كما رفض المسيحية المعتدلة، وظل على فكرة موافقاً لهم في الأخلاق الطبيعية التي كانت موجودة عند البشر قبل أن تفسدهم الحضارة، ورأى هولباخ لولا وجود الخرافات الدينية لتبع الناس الأخلاق الطبيعية، وكانوا ماديين وفي نفس الوقت مُحبين للخير، وأخيراً اعتقد هولباخ إنه إذا لم يكن بذلك الناس سلطة الكنيسة والدولة فلن يكونوا مرة أخرى أخياراً

(١) كشف النقاب عن المسيحية، نقلاً عن ايميل برييه، تاريخ الفلسفة – القرن الثامن عشر، ج٥ ص ١٦٤.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ٣٨، ص ١٤٥.

(٣) رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، ص ١٣٦.

ولا عادلين([1]) ففلسفته المادية لم تفسح أي مجال للدين على الإطلاق، بل إن حالته وفكرة جعلته ينكر ليس فقط فكرة الله، بل نفس اللفظ ، الله و يخلق، رأى أنهما ينبغي أن يختفيا من اللغة، وأنهما لفظتان ابتدعهما الجهل لإرضاء قليلي الخبرة الخاملين والجبناء الذين لا يعرفون الطبيعة ولا أساليبها. لأن الدين يقود الإنسان دائماً إلى الخزعبلات، وذكر هولباخ عندما حلت مجاعة بباريس عام ١٧٢٥م وبدأت مقدمات الثورة تظهر في المجتمع هناك، قام الناس بإحضار تابوت يضم رفات القديسة جنفيات – راعية باريس– وأخذوا يطوفون بها في شوارع باريس حتى يقضوا على الكارثة التي حلت بهم.([2])

وأختم بما قاله هولباخ في هذا الصدد تأكيداً وتلخيصاً لكل ما قاله سابقاً (إن صديق الجنس البشري لا يمكن أن يكون صديقاً للإله الذي كان في كل الأوقات سوطاً مسلطاً على الأرض، إن رسول الطبيعة لن يكون أداة الأوهام المظللة التي تجعل الدنيا مقراً للخداع، إن من يقدس الحقيقة لن ينسجم مع الزيف والباطل، إنه يعلم أن سعادة الجنس البشري تقتضي بشكل لا رجعة فيه، تقويض صرح الخرافة المظلم المقلقل من أساسه؛ لكي يقيم على أطلاله معبداً للطبيعة ملائماً للسلام... فإذا ذهبت جهوده أدراج الرياح وإذا لم يستطع أن يبث الشجاعة في الكائنات التي اعتادت أن ترتعد فرائصها جبناً، فإن له على الأقل أن يفاخر بتجاسره على أن يقوم بالمحاولة. وعلى الرغم من ذلك فإنه يحكم على جهوده بأنها عقيمة إذا استطاع أن يجعل إنساناً واحداً سعيداً أو يهدئ من اضطرابات ذهن مستقيم واحد، وأقل ما يقال إنه سوف يفيد من تحرير ذهنه هو من رهاب الخرافة المزعج... ومن أنه وطئ تحت قدميه الأوهام التي تقض

(١) وليم كارلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ٢٣٧ وما بعدها.

(٢) رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، ص ١٣٧.

مضاجع قليلي الحظ وتعذبهم، وإذ نجا على هذا النحو من خطر العاصفة استطاع أن يتأمل في هدوء من قمة صخرته في تلك الأعاصير المروعة التي أثارتها الخرافة، ويمد يد العون إلى أولئك الذين يتقبلونها)([1])، والصديق الحقيقي للإنسان والبشرية كلها هو من يحاول أن يحطم خرافة الإله، لأن جميع الصفات المنسوبة إلى الإله – كما يعتقد هولباخ – مثل الخلود واللانهائية، صفات غير قابلة للفهم، وإنها تنطبق على المادة والطبيعة بصورة أوضح، فنحن لا نفهم كل جوهر المادة ولكننا نعرف بعض مظاهرها فقط، في الوقت الذي لا نعرف فيه أي شيء عن اللامادة، ومن ثم يجوز لنا ويحق لنا أن نتجاهلها، وليس هناك ما يدعونا للبحث عن محرك للطبيعة خارجها.([2])

(١) ول دريورانت، قصة الحضارة، ج٣٨، ص ١٤٧ وما بعدها.

(٢) رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، ص ١٣٦.

المبحث الثاني
نظام الطبيعة عند هيوم

المطلب الأول
الترجمة لهيوم

ولد هيوم في ٢٦ إبريل ١٧١١م بأدنبرة بإسكتلندا، توفي والده وهو مازال رضيعاً، وكان قد ترك له دخلاً صغيراً، وكانت الأسرة تدين بالمذهب المشيخي، وأشرب هيوم اللاهوت الكلفني (نسبة إلى جون كلفن) إشراباً قوياً (وهو سبب وجود الحتمية في فلسفة ديفيد)، دخل جامعة أدنبرة، ولكنه تركها بعد ثلاث سنوات دون درجة علمية معينة(١)، وما ذلك لتقصير منه بالرغم من عدم رغبته دراسة القانون، إلا إن العرف لم يكن وقتها يلقي بالاً للشهادات والدرجات العلمية(٢)، لذلك تركها وتفرغ كلياً لدراسة الآداب والفلسفة. مُضحياً في سبيل دراسة الفلسفة بدراسة القانون الذي أرادته أسرته، وضحي كذلك بالتجارة، كل ذلك في سبيل أن يُقيم مذهباً يساوي العلوم الطبيعية دقةً وإحكاماً عن طريق تطبيق منهج الاستدلال التجريبي.

وفي واقع الأمر لم تكن الفلسفة كافية ليعتمد عليها في لقمة العيش، ولا تفيد في الناحية العملية، ولكنه أجاب على أمه وصديقه اللذان صارحاه بهذه الحقيقة : (بل هي نافعة من الناحية العملية نفعاً ليس وراءه نفع ؛ لأن الإنسان يمكن أن يمارس قواعدها في ضبط شهواته، فأي شيء أكثر إيغالاً في الحياة العملية من ضبط الشهوات؟ أيكون تفكيراً نظرياً ذلك التفكير الذي يعلو بصاحبه على مجرى الحوادث العابرة بما فيها من تفاهة وصغار؟ أيكون سابحاً في الأحلام

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج٣٥، ص٢٠٤.

(٢) زكي نجيب محمود، ديفيد هيوم، ص ١٢، بتصرف.

ذلك الرجل الذي يستعين بفكره على كوارث الزمان، فينعم في حياته بالسكينة والحرية وعزة النفس واستقلالها، بما أوتيه من قدرة على ازدراء الثراء والقوة والجاه؟)([1]).

إلا إنه على الرغم من ذلك وبعدما بدأ هيوم النظر لم يعجبه لا فلسفة عصره ولا ديانة عصره، فلم يجد فيهما تعبيراً عن الحق الذي يمكن أن تطمئن نفسه إليه، فأحس في نفسه رغبة أن يشق طريقاً جديداً يلتمس فيه الحق كما يرضيه، وبدأت الأفكار الجديدة تلمع في ذهنه من سن الثامنة عشر. ونتيجة ذلك كان أول ما نشر هما كتابين في "الطبيعة الإنسانية" الأول منهما في المعرفة والثاني في الانفعالات، ثم بعد ذلك نشر المجلد الثالث في الأخلاق، ولصعوبة فهمه حوَّله هيوم إلى مقالات قصيرة واضحة سهلة ونشرها في ثلاث مجلدات بعنوان جديد "محاولات أخلاقية وسياسية"، ويسر كذلك كتاب "الطبيعة الإنسانية"، وأخرج كتابه "محاولات فلسفية في الفهم الإنساني" وشرح فيه آراؤه عن ذي قبل وعدل العنوان إلى "فحص عن الفهم الإنساني"، ونشر كذلك كتاب في الأخلاق السياسية بعنوان "فحص عن مبادئ الأخلاق" وهو مختصر للجزء الثالث من كتاب "الطبيعة الإنسانية"، وكذلك كتاب "مقالات سياسية"، ثم دوَّن هيوم "تاريخ بريطانيا العظمى" في ثلاث مجلدات، و صنف "محاورات في الدين الطبيعي" الذي نشر بعد وفاته بثلاث سنين، وكتاب "التاريخ الطبيعي للدين"([2]).

وعلاوة وعلى ذلك فقد شغل هيوم منصب كاتب السفارة البريطانية بباريس، ثم عاد إلى وطنه وعُيِّن وزيراً لأسكتلندا، لكنه اعتزل في السنة التالية، وأقام بمدينة أدنبرة مسقط رأسه وتوفي بها ١٧٧٦م([3]).

---

(١) زكي نجيب محمود، ديفيد هيوم، ص ١٢ وما بعدها، نقلاً عن كتاب "حياتي " السيرة الذاتية لديفيد هيوم.

(٢) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مكتبة الدراسات الفلسفية، الطبعة الخامسة، ص ١٧٢.

(٣) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص١٧٢ وما بعدها.

و شغل هيوم منصب كاتب السفارة البريطانية بباريس، ثم عاد إلى وطنه وعُيِّن وزيراً لأسكتلندا، لكنه اعتزل في السنة التالية، وأقام بمدينة أدنبرة مسقط رأسه وتوفي بها ١٧٧٦م([1]).

وهكذا ظل هيوم يحركه هذا الشغف نحو البحث إلى أن أقعده المرض، وكان لابد عندها من العناية ببدنه وعافيته، وما إن استرد عافيته بعض الشيء اتجه لتغير حياته بما يناسب حالته الطارئة، وقال" إن في حياته السابقة عاش حياة تتناوبها الدراسة حيناً و الاسترخاء حيناً آخر، فكان لهذا المركب أثر في ضعف صحته، فكان لابد من تجربة مركب آخر للحياة، يتناوبها النشاط العملي حيناً والتنزه حيناً آخر، فبدأ شوطاً جديداً من حياته ينفقه في مجال عملي وهو التجارة)([2])، وتارة لا يجد نفسه في العمل التجاري فيتركها ويشد الرحال إلى بلد أخرى ليكمل بحثه الفلسفي وهكذا إلى وفاته.

وقد اخترت هيوم للبحث عن نظرة للعالم الطبيعي لما له من أهمية كبيرة في الفكر الفلسفي، فلطالما كان له في الفلسفة مكاناً مرموقاً، وأعتُبر رائداً من رواد التجديد الفلسفي في العصر الحديث، ورأوا فيه المهتمين بدراسة الفلسفة أباً وحياً للفيلسوف النقدي "عمانويل كانت"، حتى إن "كانت" نفسه أشاد بعبقرية هيوم وأعترف بفضله عليه، فقال عنه في كتابه "التمهيد لكل ميتافيزيقا تستحق أن تصير علماً" (لقد أخذتني سِنَةٌ من النوم، فجاء هيوم وأيقظني من نعاسي الاعتقادي!)([3])، وإن كانت النتائج التي توصل إليها كلاً منهما خلال بحثه الفلسفي مختلفة بوجه ما، إلا إنه لا يمكن إنكار جهود هيوم ودوره في الفلسفة وتأثيره في كثير من الفلاسفة بعده.

---

(١) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ١٧٢ وما بعدها.

(٢) زكي نجيب محمود، ديفيد هيوم، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢١م، ص ١٣.

(٣) هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ترجمة وتحقيق محمد فتحي الشنقيطي، مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الأولي ١٩٥٦م، مقمة د. عثمان أمين.

المطلب الثاني
تحليل هيوم للمعرفة

بادئ ذي بدء كانت مهمة هيوم نقد العقل الإنساني، للفحص عن أصول تصوراته ومبادئه، بهدف الوصول إلى اليقين حتى وإن جعله ذلك في مرحلة ما يبدو وكأنه غير مؤمن بقانون السببية غير معترف بوجود إله، ولكن كل ما أراده هيوم هو أن يفتح للفلسفة طريقاً جديداً غير الطريق المعتاد. وانطلاقاً من هنا فإن أول ما أقام عليه هيوم فلسفته، هو تحليل المعرفة؛ حيث قسمها إلى انطباعات وأفكار وعلاقات على الوجه التالي:

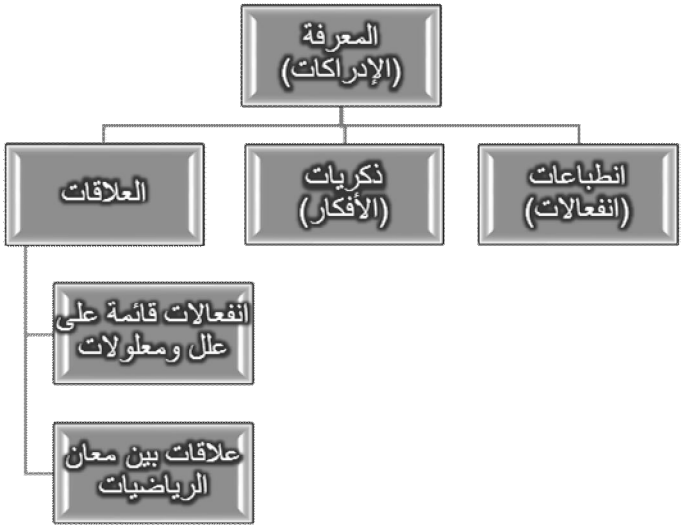

مع الوضع في الاعتبار أن ما قام به هيوم من تحليل للمعرفة، إنما هو تحليل لها كما تبدو للوجدان خالية من كل إضافة عقلية وفقاً للمبدأ الحسي(١).

فانطباعات الانفعالات هي التي يصل إليها الإنسان عندما يحس شيئاً بأحد حواسه، ثم تخلف تلك الانطباعات صور ذهنية وذكريات وهي ما يطلق عليها الأفكار.

(١) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار العالم العربي، الطبعة الأولي ٢٠١١م، ص ١٧٣.

فالفرق واضح بين من يحس شيء بأحد حواسه، وحين يستعيد مرة أخرى ذكرى ما عاناه من ألم أو لذة أو خوف أو غير ذلك.(١) إلا بالطبع في حالات المرض أو الجنون التي لا يفرق فيها الإنسان بين إدراكنا لشيء ما لأنه أمامنا، وبين وجود الفكرة في الرأس، ولكن في الحالات العادية فالإدراكان متمايزان.(٢)

وهذه الأفكار جميعها هي صورة للانطباعات الحسية، فلا توجد صورة موجودة في فكرنا لا يمكن تتبعها والوصول إلى أصلها في الانطباعات أو الخبرات الحسية المباشرة، وليس معني ذلك أن الفكر لا يستطيع أن يبحث بعيداً أو أن يكون أفكار لا علاقة لها بالحس، ولكن الخبرة المباشرة مقيدة بما هو واقع هنا.

فإن كان الإنسان يمكن أن يتخيل بحر من زئبق، ولكن هذا لأنه رأي الزئبق والبحر في الواقع فكوَّن في ذهنه صورة لبحر من زئبق أو جبل من ذهب أو الحصان الطائر ف(كل أفكارنا هي إدراكات خافته، صوراً تحاكي انطباعاتنا التي هي إدراكات ناصعة)(٣).

وهكذا يتبين أن أي فكرة مهما كانت كبيرة ومركبة، فلا يمكن إلا أن تنحل وترتد في النهاية إلى انطباعاتنا المباشرة، فكل فكرة مركبة إذن يمكن أن تنحل إلى أفكار بسيطة مصدرها الحس.

على هذا الأساس فقد مثَّل هيوم فكرة الله، وقال إننا حين نعني بالكلمة كائناً لا نهائي العقل والحكمة والخير وكل الصفات التي نعرفها، فالحقيقة أن هذه الصفات ما هي في الحقيقة إلا امتداد للصفات التي عرفناها في أنفسنا من

(١) زكي نجيب محمود، ديفيد هيوم ، ص ٢٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٨ وما بعدها.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٩.

خبرتنا الحسية، فنحن نعلم أن فينا صفة الحكمة ولكنها على قدر محدود، ولكن إذا تصورنا وجود إله فيجب أن يكون عنده تلك الصفة بقدر لا متناهي، وهكذا الأمر نفسه في كل الصفات التي يمكن أن نتخيل وجودها في البشر، فهذه الصفات عندما تجتمع مع بعضها بصورة غير متناهية في كائن عندها يمكن تسميته إله([1])، وهو نفسه ما قاله ديكارت عندما كان يحاول الاستدلال على وجود الإله، وتكلم باستفاضة عن فكرة إن الصانع يجب أن يترك في المصنوع ما يدل عليه، وإن في "العلة قدر ما في المعلول على الأقل"([2]).

وبالعودة إلى هيوم فقد رأى وجوب رفض أي فكرة أياَ كان قائلها، طالما لا نستطيع ردها إلى خبرتنا الحسية ولا الوصول إلى أصلها، وبالتالي لا تكون تلك الفكرة على أي درجة من الصواب.

ورفض هيوم كذلك كل الأفكار الفطرية الخارجة عن انطباعاتنا الحسية، ففض على سبيل المثال أن تكون هناك فكرة تخرج من باطن العقل مباشرة دون أن يكون مصدرها الانطباعات الخارجية، ومن ثَم رفض كل ما يقول به العقليون من المبادئ الأولي والأفكار الأولية والحقائق الرياضية المجردة، وكل ما يمكن أن يترتب عليها، وما يتعلق بها من ملائكة وشياطين وآلهة، لأنها أفكار لكن كانت الانطباعات المباشرة أساساً لها ([3]).

ويلاحظ من خلال ما سبق أن الانطباعات هي الظواهر الوجدانية الأولية وهي الأكثر وضوحاً والأكثر قوة، على حين أن الأفكار هي الأقل وضوحاً والأضعف أثراً لأنها صور للانطباعات، وتحدث تبعاً لها.

---

(١) زكي نجيب محمود، ديفيد هيوم، ص ٢٩وما بعدها.

(٢) ديكارت، تأملات في الفلسفة الأولي، ترجمة عثمان أمين، طبعة دار الترجمة والنشر، طبعة ٢٠٠٩م، التأمل الثالث من ص ١١٣ وما بعدها.

(٣) زكي نجيب محمود، ديفيد هيوم، ص ٣٣.

وهذا هو الجزء الأول والثاني، أما القسم الثالث الذي ظهر لهيوم عن تحليل المعرفة كانت العلاقات، والتي بدورها تنقسم إلى قسمين، الانفعالات القائمة على العلل والمعلولات كما هو الحال في العلوم الطبيعية، والعلاقات بين المعان وهي التي تتألف منها الرياضيات.

ويرى هيوم أن هذه العلاقات – سواء التي كانت بين العلل والمعلولات أو التي بين المعاني بفعل قوانين تداعي المعاني– هي القوانين الأولية للذهن أو قوانين الذهن الأولية.

ووظيفة الذهن هنا فقط هو قبول الانفعالات، فتحصل المعاني حصولاً أولياً بفعل قانون تداعي المعاني فليس في الذهن إذن شيئاً غريزياً. أما ما يتعلق بالعالم الطبيعي فهو يتبع قانون تداعي المعاني، بمعني أنه يمكن الاستدلال بالمعلول الحاضر على العلة الماضية، وبالعلة الحاضرة على المعلول المستقبل.

وجدير بالذكر أن كل هذا لا فائدة من ورائه؛ لأن تلك العلل تظهرنا فقط على تعاقب الظواهر الخارجية، وكل ما يحدث أن العلة تعني فقط البداية، ومن الممكن أن تفصل المخيلة بين معنى العلة ومعنى الوجود. ونلاحظ من ذلك إذن أن فكرة العلية عند هيوم هي فقط عادة ذهنية، لأن المعلول يختلف بالكلية عن العلة، ولا يمكن للعقل أن يبرهن على أن "الحالات غير الواقعة في تجربتنا يجب أن تشابه الحالات التي جربناها" ولا يمكن أن تبرهن التجربة على وجود التشابه بين المستقبل والماضي، وكل ما هنالك أن "العلة شيء كثر بعده تكرار شيء آخر حتى إن حضور الأول يجعلنا دائماً نفكر في الثاني" والحقيقة إنه لا يوجد حقائق ضرورية ومبادئ، وأن العلوم الطبيعية نسبية ترجع إلى تصديقات ذاتية يولدها التكرار والتجربة(١).

(١) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ١٧٤ وما بعدها.

وقانوني الفكر هما فقط قانوني التشابه والتقارب([1]).

أما فيما يتعلق بالعلاقات التي تنشأ بين المعاني، أو ما يظهر في الرياضيات، فيرى هيوم أن العلوم الرياضية (الحساب والجبر) علمان يقينين، على حين أن العلوم المكانية (أو الهندسة) ليس لها في الواقع مثل الثبات واليقين الذي للحساب والجبر، ولن نصل منها إلا إلى الاحتمال، ولكنه احتمال قوي([2]).

والخلاصة هنا فيما يتعلق بقانون العلية أو السببية أن ارتباط الظواهر ببعضها راجع فقط إلى عادة ذهنية، وذلك بخلاف الفلاسفة الذين أسسوا السببية على الضرورة لكن هيوم يرى أن السببية ما هي إلا انتظام معين لتسلسل ما، حيث إن العقل لا يمكن أن يقدم أي تبرير لما يحدث، فكل ما حدث ويحدث وسوف يحدث ما هو إلا ارتباط الأحداث في الماضي والحاضر والمستقبل وليس هناك أي حتمية لوجود هذا الارتباط في المستقبل، ولا يمكن تبريره بناء على أحداث الماضي، فقد يحدث وقد لا يحدث.

وفي الوقت نفسه رفض تقديم حجة من الخبرة على ضرورة مبدأ السببية، لأنها استعداد ما في العقل البشري، وهذا الاستعداد هو العرف والعادة، ومادام نتج عن كل تكرار لفعل ما نفس النتيجة دون تدخل الاستدلال أو العقل أو التخيل لمحاولة فهم ما حدث، فيكون أثر هذا التوجه غالباً للعادة، وليس هناك إذن أي ضرورة في مفهوم السببية، فهذا المبدأ موجود في الطبيعة البشرية متعارف عليه ومعروف عن طريق آثاره.

وتكون العادة هي القادرة على التنبؤ بالمستقبل عن طريق الماضي، أما الاعتقاد بوجود أسباب أو علل فهو أمر لا مبرر له، وهو مجرد وهم وخرافة.

---

(١) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ١٧٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٥.

وبالتالي فالمستقبل لا يمكن أن يكون على شكالة الماضي تماماً، وكل ما يمكن أن يقال هنا هو أن ما حدث في الماضي يمكن أن يحدث أو لا يحدث في المستقبل، فالاتفاق بين الماضي والمستقبل يدخل في دائرة الاحتمال، وليس له أي علاقة بالضرورة.

وعلى الجانب الآخر فيما يتعلق ب**الأخلاق**، أنكر هيوم أن يكون الإله هو مصدر الأخلاق، وفي الوقت نفسه رفض كذلك أن يكون العقل هو مصدرها، وبدأ البحث في النفس البشرية، فوجد أن نفس الإنسان لا تتكون إلا من انطباعات حسية بعد زوال المؤثرات التي أحدثتها، ومن أفكار.

ولا يمكن أن تكون تلك الانطباعات الحسية هي مصدر الأخلاق، وبالتالي لابد وأن يكون لدينا حاسة خلقية، تعمل كالحواس بأن تنطبع انطباعاً مباشراً بمؤثرات معينة، فانطباعتنا هذه بعد زوال المؤثرات هي نفسها أفكارنا الخلقية. وإذا كان لكل حاسة مؤثرات خاصة بها، فلهذه الحاسة مؤثراتها الخاصة بها والتي لا شأن لسائر الحواس بها.([1])

وبالتالي لا يكون العقل ولا الحواس مصدر الأخلاق، وبيَّن في الوقت نفسه أن الأخلاق لا تبني على المصالح الشخصية، ولكنها (تُبنى على إدراك حسي مباشر من طراز خاص) نميز به بين الخير والشر، شيء موجود في طبيعة البشر، وهو الشعور المباشر بالرضا والسخط إزاء الأشخاص والأفعال، دون أن يكون هذا الرضا والسخط صادراً عن مصلحة شخصية ذاتية، فكأن هيوم يريد أن يقول إن العاطفة لا العقل ولا الحواس المصدر الحقيقي للأخلاق([2]).

(١) زكي نجيب محمود، ديفيد هيوم، ص ١١٦ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٩ وما بعدها.

المطلب الثالث
نظام الطبيعة عند هيوم وعلاقته بالإله

وإذا كانت هذه نظرة هيوم لمبدأ السببية أو العلية، فكيف يمكن الاستدلال على أي شيء في الكون أو الاستدلال على وجود الإله؟ رأى هيوم أن البداية في البحث عن الإله خاصة مع الصغار لا يكون بمعرفة طرق الاستدلال، وإنما تكون فقط بالتقوى، ولا يقوم ذلك على العقل أبدا، لأنه لا يطلب منهم في السن المبكر معرفة طرق الاستدلال ولا الجدل في إثبات الإله ومعرفة طبيعته، وفي نفس الوقت يجب الانفتاح على الفلسفة والعلوم، الفلسفة التي شاع بين الناس أنها لا علاقة لها بالعلم ولا البحث العميق، فقد شاع بينهم ازدراء الفلسفة، لذلك ازدادوا جموداً في المسائل الدينية التي لُقنت لهم، بخلاف الذين أخذوا بنصيب من الدراسة والبحث، فقد وجدوا كثير من الشواهد في أحدث النظريات، واكشفوا أنه لا شيء يشق على العقل البشري، ويجب في الوقت نفسه أن يضع الإنسان أمامه خداع الحواس، والعقبات والتناقضات التي تصاحب المبادئ الأولي، خاصة أنها قد تعرض للتحريف والتشويه نتيجة عوامل خارجية. وبالتالي عندما يضع الإنسان هذه العقبات أمام عقله، ويعرضها كما عرضها الفلاسفة فلا يستطيع عندها أن يحتفظ بثقة في العقل، حتى يعتبر أحكامها نائية عن الحياة العامة والتجربة(١).

وبناء على ذلك انتقد هيوم الأدلة على المشهورة على وجود الله، فرفض دليل الغائية، القائم على تمثيل العالم بالآلة الصناعية والله بالصانع الإنساني؛ لأنه ليس من حقنا أن نمد هذا التشبيه إلى الكون كله، لأننا لا ندري المجانسة

(١) انظر هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، ص ٧، ١٤ وما بعدها.

في جميع أجزائه، ولو سلمنا المجانسة لما سلمنا بهذه المماثلة لما انتهينا حتما إلى الإله الذي يقصده القائلين بالدليل الغائي.

وقال إن هذا الدليل ضعيف متهافت، ويرفضه كذلك الصوفيون لأنه يتضمن تشبيهاً مادياً، ولا يعجب أهل الجدل لأنه يؤدي إلى إمكانية وجود أكثر من إله، وغاية هذا الدليل هو البرهنة على وجود إله يسمو عن الإنسان، ولكن سلطته محدودة وصناعته ينقصها الإتقان والإحكام، لأن الكون عند الطامحين مليء بالأخطاء، فالدنيا التي نعيش فيها تبدو وكأنها التجربة الأولي لطفل، فلما اتسعت خبرته ونمت مداركه تخلى عنها وندم، ورأي هيوم في النهاية إنه من الحكمة والخير عند المسيحيين أن لا يكون لهذه النظرية أصلاً وجود.(١)

وفي الوقت نفسه رأى هيوم إنه لا يمكن معرفة الله معرفة برهانية، ولكنه في الوقت نفسه لم يستبعد الاعتقاد في الإله تماماً(٢).

أما عن دليل المحرك الأول، فليس هناك ما يحتم تسليمه ونبذ المذهب المادي.

ورفض كذلك دليل الموجود الضروري، لأنه لا يستند إلى أصل التجربة، حيث إن التجربة لا تعرض علينا انفعالاً ضرورياً، والمخيلة تستطيع دائماً أن تسلب الوجود عن أي موجود كان، فالموجود الضروري ما هو إلا وهم المخيلة(٣).

وخالف هيوم ما أشتهر عنه وعن أتباع المذهب التجريبي كونهم من الملحدين الرافضين للاعتراف بوجود الله، ولكن هذا غير صحيح تماماً، فهيوم

(١) توفيق الطويل، قصة النزاع بين الدين والفلسفة، طبعة مكتبة الآداب، مصر، بدون تاريخ، ص ٢٢٣.

(٢) جيمس كولنز، الله في الفلسفة الحديثة، ص ١٦٤.

(٣) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ١٧٨.

كثيراً ما كان يقول إن (قليل من الفلسفة تجعل الإنسان ملحداً، لكن الكثير منها يثوب به إلى الدين)([1])، من هنا فهيوم كان مؤمناً بالدين ومعترفاً بالإله. ويقول هيوم على لسان "فيلون" الذي يمثل هيوم نفسه في مرحلته الأولي الشكية([2]) في كتاب "محاورات في الدين الطبيعي": (إنني أذهب إلى القول ليس ثمة إنسان سليم الذوق في حقيقة بديهية بالغة اليقين، فالمسألة ليست تختص بوجود الله بل بطبيعته)([3]).

ومن هنا يتضح أن هيوم بالرغم من كل ما سبق لم يكن لينكر وجود الله، ولكن المشكلة عنده أنه لم يستطيع الوصول إلى طبيعة الإله وحقيقته. ولكن هيوم برر سبب كون طبيعة الإله مجهولة لنا ومستعصية على فهمنا البشري لأن (جوهر ذلك الذهن السامي، وصفاته وطريقة وجوده، وطبيعة بقائه، هذه وكل جزئية تختص بهذا الموجود الإلهي غامضة على الناس، ولما كنَّا مخلوقات متناهية ضعيفة عمياء فينبغي لنا أن نتواضع في حضرته الرفيعة. وعندما نشعر بنقائصنا؛ نعشق في صمت كمالاته اللامتناهية التي لم تراها عين من قبل، ولم تسمع بها أذن، ولم تدخل قلب بشر فيفقها، فهي مُعَلَّقة في سحابة كثيفة دون تطلع البشر، وإنه لمن الدنس أن نحاول اختراق هذه المبهمات المقدسة)([4])، فهذا فيه ما فيه من التناقض،فمرة يصف الإله بأنه جوهر سامي، ومرة بأنه ذهن لا مادي، ولذلك فسَّر هيوم ذلك، ورأي هيوم أنه لا يجب علينا أن نغالي وندعوه روحاً لكي نبيِّن أنه ليس مادة، ولا ينبغي لنا كذلك أن نفترضه جسماً مكتسباً بدن بشري –كما زعم جماعة المشبهة– ولا أن نختال لروح الله

(١) هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ص ٢٩.

(٢) محمد فتحي الشنيطي في تقديمه لكتاب، محاورات في الدين الطبيعي.

(٣) هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ص ٣٢.

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٢.

أفكاري أو أن بينه وبين روحنا ثمة تشابه بحجة أننا لا نعرف شيئاً أكمل من الذهن البشري.

فينبغي علينا إذن أن نعلم أنه كما يمتلك كمالات الأجسام دون أن يكون جسماً، فهو يشمل كذلك كمالات أذهننا البشرية دون أن يكون ذهناً. ولكن كل ما يجب علينا هو فقط الإيمان بأنه موجود كامل كمالاً لا متناهياً، فهو الوجود الكلي اللامتناهي([1]).

وإذا كانت هذه حقيقة الإله، لكن هذا لا يكفي فلابد من ذكر أدلة جديد – من وجهة نظره – على وجود هذا الإله، خاصة بعدما رفض كل الأدلة التي استخدمها غالب الفلاسفة قبله.

ورأى أنه طالما ابتعدنا عن الحجج المألوفة، كان الواجب علينا البحث عن حجة أكثر يقينا([2])، ومن هنا كان الدليل الذي أعتمد عليه، وهو دليل أشبه بدليل العناية والنظام، وهو الدليل الذي يحظى -كما يرى هيوم- باهتمام المدافعين عن الدين العقلاني، وهذا الذي يُبنى على أصلين، الأول منهما: أن النظام والإحكام والإتقان والدقة الكاملة في الكون بجميع مستوياته ومظاهره العليا والسفلى، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالإنسان أو الحيوان أو النبات أو السماء أو الأرض حتى الكواكب والنجوم أو فيما يتعلق بالذرات أو المجرات أو الخلايا، فإننا سنجد الدقة والإحكام والإتقان والتناسق تندهش له العقول، وفي الوقت نفسه نجد الكون بكل ما فيه قصد منه العناية بالإنسان، فكل ما في الكون مسخر لخدمة الإنسان.

أما الأصل الثاني وهو أن ضرورة العقل تقتضي أنه لابد من افتراض فاعل ومريد ومدبر لهذا التصميم الدقيق الذي قصد منه العناية بالإنسان، ولا يمكن ولا يصح في ضرورة العقل أن يكون كل ذلك إنما جاء من عدم محض، أو

(١) هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ص ٣٢ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦.

عبثاً أو صدفة، أو من مسبب لا يمتلك علماً ولا معرفة بالنظام والترتيب، وليس ذلك إلا الله.([1])

وكان قد رأى ابن رشد أن هذا الدليل مع دليل الاختراع ([2]) هو الطريق الشرعي الذي نبه إليه القرآن الكريم، والذي اعتمده الصحابة (ﷺ)، حيث إنه دليل سهل وميسر وأقرب إلى الفهم([3]).

أما عن دليل هيوم على وجود الإله، والذي قرر هيوم أنه لابد هو أو أي دليل على وجود الله أن يبدأ من الحس([4]): (انظر حول العالم، تأمله برمته وتأمل كل جزء فيه، تجده ليس إلا آلة عظيمة مقسمة إلى عدد لا متناه من الآلات أصغر، تتبع بدورها تقسيمات أخر، إلى درجة تتخطى ما تستطيع الحواس والملكات البشرية أن تتبعه وتفسره.

وهذه الآلات المتنوعة جميعاً منظمة فيما بينها بدقة تُبهر كل مَنْ تأملها.

ثم إن التوافق العجيب بين الوسائل والغايات في جوانب الطبيعة جميعها لتنبه في دقته ثمرات الإبداع والتدبير والفكر والحكمة والذكاء البشرية، وإن كان يفوقها.

---

(١) الإيجي، شرح المواقف، ج٢ ص ٣٥٢، نقلاً عن الإمام الأكبر أ.د أحمد الطيب شيخ الأزهر، المختار من مقومات الإسلام، طبعة دار أبو المجد، بدون تاريخ، ص ٣٤.

(٢) والذي يبنى كذلك على مقدمتين الأولي منهما أن موجودات العالم مخترعة، والثاني أن كل مختَرَع لابد له من مخترِع، والنتيجة أن للوجود فاعل مختار مخترع له، وهاتين المقدمتين يقينيتان، لأنهما أصلين موجودين في فطرة كل إنسان، انظر ابن رشد الكشف عن مناهج الأدلة، مقدمة د. محمد عابد الجبابري، طبعة مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولي ١٩٩٨م، ص ٨٠ .

(٣) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص ٨١.

(٤) جيمس كولنز، الله في الفلسفة الحديثة، ص ١٦٥.

فما دامت المعلولات تتشابه فيما بينها، فنحن نتأدى إلى الاستدلال على أن العلل أيضا تتشابه، وأن صانع الطبيعة يشبه إلى حد ما الذهن البشري وإن كان مزوداً بملكات أوسع تتناسب مع جلال العمل الذي أنجزه)([1]).

وأقر هيوم أن بهذه الحجة وحدها يمكن أن نبرهن على وجود الله، وعلى مشابهته لذهن وذكاء البشريين.

ولذلك كررها هيوم مرة أخري علي لسان (كليتانش) الذي يعبر عن هيوم في مرحلته الفكرية الأخيرة([2]) فقال (إن نظام الطبيعة وترتيبها، والتوافق العجيب بين العلة الغائية والفائدة الواضحة، والقصد البيِّن لكل جزء ولكل عضو، كل هذه تكشف في أنصع لغة عن علة عاقلة أو صانع عاقل.

فالسموات والأرض تجتمع في شهادة واحدة، وجودة الطبيعة ترتل بكافتها أنشودة في مدح خالقها)([3]).

وقد تحدث كذلك كليتانش – هيوم- علي وجود خالق للطبيعة عندما كان يبحث عن السبب في وجود المزايا الكبيرة والمنح التي للإنسان والحيوان، فما السبب الذي منحهما العينان والأذنان، وغيرهما من الأمور الضرورية ليبقيا على قيد الحياة ولبقاء نوعيهما، ومن الذي أوجد الجياد والأبقار، والفواكه والمنتجات التي لا حصر لها وعلى تُعين على إمتاعنا، ما الفائدة من وجود النوق لمساعدة الإنسان في صحاري إفريقيا وبلاد العرب الرملية خاصة، والأمثلة في ذلك كثيرة وهي أبعد ما تكون عن الندرة، والتي لولا وجودها لبدأ الإنسان في الهلاك في الحال بمجرد وجوده.

---

(١) هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ص ٣٣ وما بعدها.

(٢) زكي نجيب محمود، هيوم، ص ١٣٤.

(٣) هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ص ٦٤.

وإن أيا منها لدليل كافٍ على التدبير، بل وعلى التدبير الكريم الذي أتاح الظهور للعالم.([1])

وقد ذكر هيوم على لسان (فيلون) في كتابه "محاورات في الدين الطبيعي" دليل يدور حول نفس فكرة النظام والإتقان في الكون ولذلك أعجب به (كليتانش) الذي يمثل شخصية هيوم في المرحلة الأخيرة، وملخصه: عند النظر إلى بنية الجسم، فتشريح الإنسان يكشف عن ما يربو عن ستمائة عضلة مختلفة، وكل منهم جاءت على هيئة مناسبة لما وضعت له، فكلٍ منهم جاءت ملائمة للأعصاب والأوعية والشرايين، بحيث لابد لما يزيد عن ستة الآلاف غاية ومقصد أن تكون متحققة في العضلات وحدها.

وهو يحصر العظام في ٢٤٨ والأغراض المتميزة التي يهدف إليها في كل بنية تزيد على أربعين؛ فما أدق هذا التفنن في وجود هذه الأجزاء بهذه الصورة المتجانسة.

والأمر نفسه إذا تأملنا الجلد والأوعية والغدد، وأطراف الجسم وأعضائه العديدة، الأمر نفسه مع بنية الأجزاء الباطنية، فنندهش لهذه الأجزاء المتوافقة توافقاً معقداً عجيباً.

كل هذا التفنن موجود في كل البشر وكل أنواع الحيوانات المختلفة وكل أجزاء الطبيعة.

فكلما تقدمنا في هذه الأبحاث اكتشفنا مشاهداً جديداً تدل على مدى العناية بالعالم، ومدى الدقة والإحكام والإتقان في كل مظهر من مظاهر الوجود. ورأي (فيلون) أنه لا توجد أدلة أقوى من تلك الأدلة المبثوثة في الطبيعة على وجود الإله وتدبيره للعالم، وهذه الحجة لا تخفى حتى على الأغبياء([2])، وهي أقوى الحجج على الألوهية، ويرى هيوم أن قوتها لا تقوم على أسس موضوعية

(١) هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ص ٩٧ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٣.

مفحمة، بل إنها تستمد قوتها الإقناعية من الميول اللاعقلانية في الطبيعة الإنسانية بقبول وجود صانع ذكي قوي للكون بأسره، ولذلك كانت من حكم هيوم المفضلة "إن الفلسفة تستطيع أن تجعلنا شكاكاً تماماً، لولا أن الطبيعة أقوى منها بكثير"(١).

ومن هنا فالإرادة الإلهية قادرة قدرة شاملة، وهي العلة الحقيقة للعالم، ومرتبطة بكل معلول(٢).

فوجود العالم يثبت وجود عقل كامل شامل مدبر، تصاحبه دائماً طاعة كل مخلوق وكائن، فلسنا الآن في حاجة لأكثر من ذلك لإقامة أساس لكل بنود الدين، كما أنه ليس من الضروري أن نُكوِّن فكرة متميزة عن قوة الكائن الأسمى وطاقته)(٣)

ولكن إذا كان لابد لهذا العالم بكل ما فيه من مدبر وخالق له، فما هي صفاته؟ عندما تكلم هيوم على لسان (كليتانش)، لم يعرف هيوم حقيقة صفاته، فهو يرى أننا لو تخلينا عن كل مماثلة ببينه وبين البشر فإننا نتخلى عن كل دين، ولن يظل لدينا تصور ما عن الموضوع العظيم لعبادتنا، وفي الوقت نفسه لو احتفظنا بالمماثلة البشرية نجد أنه من المستحيل على الدوام التوفيق بين خليط من الشر في العالم والصفات اللامتناهية، وأقل من ذلك أن يكون في وسعنا التدليل على الخير من الأول.

ومن هنا فيمكن بالعقل أن يقيس الإنسان طبيعة الله على طبيعة البشر؛ لما بين الطبيعتين من تشابه، لأن صنعة الله شبيهة بصنعة البشر من حيث توافق الأجزاء والسير نحو الغاية، فمن الممكن أن يهتدي على أساس هذا التشابه

(١) جيمس كولنز، الله في الفلسفة الحديثة، ص ١٧٢.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٦.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦١، ١٦٦ بتصرف.

والماثل إلى خصائص الله مستنتجين ذلك من خصائص الإنسان وحينئذ يكون الفرق بين الجانبين في الكم وحده لا في الكيف(١).

ومما لا شك فيه إنه لا يجوز أن يطلق على الله تعالى لا كم ولا كيف، لأنها من الأعراض التي لا يوصف بها إلا الأجسام، والله تعالى ليس بجسم ولا عرض.

وأخيراً بيَّن هيوم السبب في وجود الشر في العالم، وبيَّن أنه لا يمكن أن يكون خالق الطبيعة محدود الكمال بأن ينزل الشر بالبشر دون حكمة ولا سبب؛ ولكن السبب الحقيقي في وجود الشر في العالم هو من باب اختيار الشر الأقل لتجنب الشر الأعظم(٢)، فكل ما يفعله الإله إنما هو لحكمة حتى وإن جهلناها، ففكرة الله تعني كائناً عاقلاً حكيماً خبيراً إلى مالانهاية(٣).

ولكن الفكرة الرئيسة عند هيوم، عادت للظهور مرة أخرى بعدما أقر بوجود الإله، هو أنه لا يعرف من هو هذا الإله، فهو كما قال عن نفسه لا أدري (ولا ينبغي أن أدري، فذلك أمر لا يخصني، لقد وجدت إلهاً، وههنا أقطع بحثي، دع أولئك الذين بلغوا مبلغاً أعظم من الحكمة والجرأة يذهبون إلى أبعد من هذا)(٤). وبذلك يكون موقف هيوم موقف وسط بين لا أدرية "بيكون" وبين جهود "لوك" و"باركلي" في الاستدلال على وجود الله(٥).

ومن هنا رأى هيوم أن بحثه في الطبيعة يتوقف عند الوصول إلى معرفة أن هناك إله في الكون، خالق له ومدبر لكل شيء فيه، ولا يجب عليه، أو بالأحرى أنه لا يجرأ على البحث في حقيقة هذا الإله، فهو يكفيه أن يعرف أنه موجود.

---

(١) زكي نجيب محمود، هيوم، ص ١٣٤.

(٢) هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ص١٣٢.

(٣) جيمس كولنز، الله في الفلسفة الحديثة، ص ١٦٥.

(٤) هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ص ٦٥.

(٥) جيمس كولنز، الله في الفلسفة الحديثة، ص ١٦٤.

– واهتم هيوم كذلك بأدلة وبراهين أخرى على وجود الله غير برهان النظام والتدبير، أعنى برهان المعجزة التي احتج بها المؤمنون بالدين الذي يأتي عن طريق الوحي، لكنه تحدث عنها باختصار، واكتفي بالإشارة إلى أن هذه البراهين انتهجت أسلوباً غير سليم في إثبات وجود الله، بينما سار برهان التخطيط والتدبير وفق منهج صحيح، إلا إنه لم يجر استخدام هذا المنهج استخداماً صحيحاً، ولذلك بنى هو الدليل بطريقة صحيحة.

وكل ذلك في مقابل الدين الطبيعي، الموجود بداخل الإنسان، والذي لا يحتاج عند المؤمنين به –كما يرى هيوم– إلى تدعيم البرهان العقلي، ولا حتى المعجزة، ولا يعني هيوم هنا بطبيعة الإنسان غرائزه الأولوية، لأن الغرائز تكون متشابهة عند البشر جميعاً، لكن العقيدة الدينية يتغير مضمونها بين كل فريق وبين كل عصر.

وهذه الغريزة وغيرها المتفرعة من طبيعة الإنسان ثانوية، وليست أولية، ويرى هيوم أن الآمال والمخاوف هي التربة التي تنبت منها العقيدة الدينية(١). فالعواطف هي التي تدفعنا للتصديق بوجود إله، حتى ولو كان التحليل الفلسفي يؤكد لنا افتقارنا إلى وسائل الارتقاء إلى معرفة عن هذا الإله تتسم باليقين البرهاني، وترجع إذن ضرورة الاعتقاد في الإله إلى الميل الذاتي في طبيعتنا أكثر من رجوعها إلى العقل(٢).

وكأن هيوم يقصد بذلك الفطرة الموجودة في طبيعة كل البشر، والتي يولد عليها كل مولود، والتي نبهنا إليها رسولنا الكريم (ﷺ) عندما قال «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ

(١) زكي نجيب محمود، هيوم، ص ١٣١ وما بعدها بتصرف.
(٢) جيمس كولنز، الله في الفلسفة الحديثة، ص ١٧٢.

بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»(١)، ولكن ما يخالف هيوم هنا هو أن هذه الفطرة لا تختلف من شخص إلى آخر ولا من عصر إلى آخر، فالفطرة واحدة عند جميع البشر كما يدل على ذلك قوله تعالى: **(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)**(٢) وقال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة (يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه)(٣)، ولكن الاختلاف يأتي من نوع التشوه والانحراف الذي تعرضت له الفطرة النقية، ولو ظلت تلك الفطرة على طبيعتها التي خلقها الله عليها لآمنت بالله.

وأخيراً بعدما عرف هيوم وجود الإله، رأى أن معرفة الله لا ينبغي أن تدفعنا إلى القيام بشعائر معينة لعبادته، بل إن المعرفة به هي جوهر العبادة ولا شيء سواها(٤).

فبذلك يتضح كيف وصل هيوم من خلال النظر في الطبيعة، سواء أكانت تلك الطبيعة العالم وما فيه من نظام وإحكام وإتقان، أو طبيعة الإنسان الداخلية أي عواطفه إلى وجود إله خالق مدبر للكون، لم يعرف هيوم حقيقته، ولكنه آمن بوجوده، لم يكن للإله دخل في أي شيء يتعلق بالأخلاق فالأخلاق كما يرى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام رقم (١٣٥٨).

(٢) سورة الأعراف ١٧٢

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٩٩٩م، ج٣ ص ٥٠٠.

(٤) جيمس كولنز، الله في الفلسفة الحديثة، ص ١٧٣.

هيوم علمانية تماماً، ولم يكن هناك شعائر معينة لعبادة هذا الإله ، فعبادته هي فقط معرفته، ومعرفته معرفة نظرية تماماً لا علاقة لها بالبراهين العقلية، وكلما حاول الإنسان أن يشك في وجوده يجد طبيعته تدفعه دفعاً إلى الإيمان به والبحث عنه، فنظام الطبيعة الخارجية أو طبيعة الإنسان الداخلية هي السبب الأول في معرفة الإله والإيمان به عند هيوم.

تعقيب

وأخيرا يتضح مما سبق أن الفرق بين علَّية هيوم وعلَّية هولباخ أن هيوم أراد أن يقول إن الارتباط والتتابع بين المعلول وعلته هو مجرد ارتباط وتتابع ثابت، ولكنه ليس ضروري، بمعنى إنه قد يتخلف في أي وقت لأي سبب أو حتى بدون سبب.

بخلاف هولباخ الذي نظر إلى أن التتابع بين المعلول والعلة ضروري، لا يمكن أن يتخلف، فكل معلول يأخذ وجوده وحركته من العلة الأخرى وهكذا في تتابع هندسي إلى مالانهاية، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من تناقض؛ (لأن عدد حدودها سيكون والحال هذه أكبر ما يمكن، ولأنه لا وجود لعدد أكبر ما يمكن، فضلاً عن أن السب الكافي لمعلول فعلي سيكون والحال هذه نائياً لا متناهياً، مما يعدل القول بأنه لن يكون له وجود في أي مكان)([1]).

ويتبين أيضا من نظرة هولباخ ل "نظام الطبيعة" أنها لم تؤدي به في النهاية إلى الرجوع إلى موجود هو خالق لكل هذه الموجودات – كما كان الأمر مع هيوم– ولكن أدى به نظرته لنفس الطبيعة التي نظر لها هيوم إلى نتيجة مختلفة تماماً، وهي إنكار وجود إله، أو قوة عُليا فوق نظام العالم المادي، بل إنه هاجم

(١) نورمان هولاند، تأملات فلسفية، طبعة ١٧٧٣، ص ٢١، نقلاً عن إيميل برييه، تـــاريخ الفلسفة – القرن الثامن عشر، ج٥ ص ١٦٥.

بشدة كل الحجج الفلسفية على وجود الله – كما فعل هيوم– ولكن عاد هيوم ووجد دليل آخر على وجود الإله، خالي من المأخذ على الأدلة السابقة، ولكن هولباخ لم يجد، ووقف معتقداً أن وجود الله وخلود النفس من الخرافات التي فرضها عليه وعلى غيره الحكام والكهنة لكي يستطيعوا استغلالهم بسهولة أكبر.

ورأي أن التناسق و النظام الموجود في الكون يرجع إلى أن الطبيعة تعمل بطريقة ميكانيكية آلية، ولم تعد تسير وفقاً للعناية الإلهية، وأن الأمر لا يتطلب أبداً أن نرجع هذا إلى أي إله، وأن الطبيعة تسير قدماً دون النظر لأي اعتبارات عندنا نحن البشر، فالطبيعة تنزل على البشر الخير والشر دون تحيز([1]).

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ٣٨، ص، ١٤٨ ١٤٥.

الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ألا وقد وصل البحث إلى نهايته، أشكر الله – تعالى– أن وفقني إلى إتمامه وأسأله أن يجعله خالصاً لوجه الكريم، وأحب أن أسلط الضوء على أهم ما توصلت إليه من نتائج، وهي على الوجه التالي:

(١) يعُتبر هولباخ من أكبر دعاة المادية في العصر الحديث، حيث فسَّر هولباخ الوجود بالمادة والحركة، اللاتي يخضعن للقوانين صارمة لا تتخلَّف، حتى عمليتنا الذهنية، فهي حركات في ذهن الإنسان المادي، فالنفس ليست إلا البدن منظوراً إليه من جهة بعض وظائفه.

(٢) نتيجة حتمية لمادية هولباخ اعتبر إنه لا حاجة إلى الدين، لأن قوانين المادة الطبيعة يمكن أن تفسر كل ما يحدث في العالم حولنا، وبالتالي فالجهل بالطبيعة وقوانينها أخطر أنواع الجهل لما يترتب عليها من الإيمان بالإله، لكن معرفة الطبيعة هي الترياق الشافي من كل تلك الشرور.

(٣) الإنسان في فلسفة هولباخ مُجبر بمقتضي طبيعته، ويجب عليه أن يتقبل ما تفرضه عليه الطبيعة من وصاية في صمت.

(٤) رفض هولباخ الربط بين الأخلاق والدين واعتقد أن في ذلك مخاطرة، فالإنسان عندما يكشف زيف المعتقدات الدينية – بعدما يعرف قوانين الطبيعة– يكون ذلك دافعاً للانحلال والفجور، فيكون الدين إذن مصدر الرذيلة، وعلى الجانب الآخر جعل بدلاً من الأخلاق الدينية ما سماه بـــ(الأنانية المستنيرة) مؤسساً بذلك لمبدأ النفعية والبرجماتية قبل ظهوره بقرنين من الزمان.

(٥) ورفض هولباخ الأديان بشكل عام، والمسيحية بشكل خاص، فأنكر وجود

الإله وخلود النفس وكل ما يتعلق بما وراء الطبيعة وقوانينها، الأمر الذي جعل المعاصرين له يطلقون عليه (العدو الشخصي للإله).

(٦) بدأ هيوم فلسفته بنقد العقل الإنساني للوصول إلى اليقين، فبحث في أصول تصوراته ومبادئه، ورد كل الأفكار إلى خبرتنا الحسية ورفض الأفكار الفطرية، ورأى أن العالم الطبيعي يتبع قانون "تداعي المعاني" وإن كان يمكن الاستدلال بالمعلول الحاضر على العلة الماضية، والعلة الحاضرة على المعلول المستقبلي، إلا أن ذلك مجرد عادة ذهنية وليست ضرورية، فالمستقبل قد لا يكون على شاكلة الماضي فيدخل الأمر في دائرة الاحتمال، بخلاف قوانين الطبيعة عند هولباخ فهي لا تتخلَّف أبداً.

(٧) أنكر هيوم كهولباخ أن يكون الإله مصدراً للأخلاق، ورفض أن يكون العقل مصدرها ولا الانطباعات الحسية، ورفض أن تُبني على المصالح الشخصية بخلاف بهولباخ الذي اعتقد ذلك.

(٦) نقض هيوم كل الأدلة المشهورة على وجود الإله، رفض دليل العلة الغائية ودليل المحرك الأول ودليل الموجود الضروري، وجاء بدليل أشبه بدليل العناية والنظام، توصَّل من خلاله إلى الإله، ولم يعرف عنه أكثر من إنه يمتلك كل كمالات الأجسام المادية وكل كمالات الذهن البشري، دون أن يكون جسم أو روح، ولا يجب علينا أن نقوم بأي شعائر دينية، لأن معرفة الله هو جوهر عبادته كما كان يعتقد هيوم.

(٧) وأخيراً فإن نظرة هولباخ لنظام الطبيعة وصلت به الإلحاد، في الوقت الذي نظر فيه هيوم لنفس الطبيعة ووصل إلى الإيمان والتيقن من أن كل ما في العالم لا يمكن أن يكون إلا من صانع قادر عالم حكيم.

التوصيات

- يعتبر هولباخ بكل جوانب فلسفته مجال مفتوح للدراسة لجميع الباحثين المهتمين بدراسة الفلسفة، فالكتابات فيه قليلة جداً، وغير مستوفية كل جوانب فلسفته.

- دعوة هولباخ للأخلاق النفعية قبل البرجماتية بأكثر من قرنين من الزمان أمر مثير للاهتمام ويحتاج إلى مزيد من البحث والتدقيق فيما قاله.

- مسألة الأخلاق عند هيوم مازالت أمر يحتاج المزيد من الدراسة.

المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: السنة النبوية

– صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه) للإمام محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولي ١٤٢٢هـ.

ثالثا: المصادر والمراجع العامة:

– ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، مقدمة د. محمد عابد الجابري، طبعة مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولي ١٩٩٨م.

– ابن سينا، النجاة، القسم الثاني في الحكمة الطبيعية، طبعة محي الدين صبري الكردي، ١٩٣٨م.

– ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي سلامة محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٩٩٩م.

–أحمد الطيب، المختار من مقومات الإسلام، طبعة دار أبو المجد، بدون تاريخ.

– أندرو ديكسون وايت، بين العلم والدين، مؤسسة هنداوي طبعة ٢٠١٤م.

– إيميل برييه، تاريخ الفلسفة، القرن الثامن، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان – الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

– توفيق الطويل، قصة النزاع بين الدين والفلسفة، طبعة مكتبة الآداب، مصر، بدون تاريخ.

– جيمس كولنز، الله في الفلسفة الحديثة، ترجمة فؤاد كامل، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بنيويورك ١٩٧٣م.

- ديكارت، تأملات في الفلسفة الأولي، ترجمة: عثمان أمين، طبعة دار الترجمة والنشر، طبعة ٢٠٠٩م.
- رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب، دار ابن سينا - مصر، الطبعة الأولي ١٩٩٧م
- زكي نجيب محمود، ديفيد هيوم، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢١م.
- محمود حمدي زقزوق، علم المقارنات الفلسفية، هدية مجلة الأزهر عدد ذو القعدة ١٤٣٨هـــــ.
- محمود حمدي زقزوق، دراسات في الفلسفة الحديثة، دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م.
- عبد المنعم حنفي، المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية، مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة ٢٠٠٠ م.
- عضد الدين الإيجي، شرح المواقف، دار الكتب العلمية - بيروت، بدون تاريخ.
- محمود عتمان، الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- نورمان هولاند، تأملات فلسفية، طبعة ١٧٧٣.
- هولباخ، نظام الطبيعة، ترجمة من الفرنسية اتش دي رونبنسون، مطبعة برت فرانكلين، نيويورك ١٩٧٠.
- هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ترجمةك محمد فتحي الشنيطي، تقديم عثمان أمين، مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الأولي ١٩٥٦م.
- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرون، دار الجيل، بيروت، طبعة ١٩٨٨م.

– وليم كارلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمود سيد أحمد، تقديم: إمام عبد الفتاح إمام، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الاولي ٢٠١٠م.

رابعا: الموسوعات الإلكترونية

– موسوعة ستانفرد للفلسفة، بحث بعنوان (بول هنري تيري بارون دي هولباخ) ترجمة: منال محمد خليف، منشور بمجلة الحكمة بتاريخ ١٤١٧هـ-٢٠٢٢م.

https://plato.stanford.edu/archives/spr٢٠٢٠/entries/holbach/

موسوعة الكشاف، تم النقل عنها بتاريخ ٢٠٢١/١٢/٣٢م

https://www.kachaf.com/wiki.php?n=٥ed٩٤e٧e٦٧٧١٧٦٢٥af٠f١١d٩

خامسا: المجلات العلمية

– بحث أ.د. أحمد رمضان، بعنوان العلم والدين، منشور بالمجلة العربية للدراسات الإسلامية والشرعية، العدد الثالث إبريل ٢٠١٨م.

سادسا: المصادر الأجنبية:

System Of Nature, translated by H.D Robinson, New York: Burt Franklin, ١٩٧٠.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص باللغة العربية	٣٦٣
الملخص باللغة الإنجليزية	٣٦٥
مقدمة	٣٦٧
المبحث الأول: نظام الطبيعة عند هولباخ	٣٧١
المطلب الأول: الترجمة لهولباخ	٣٧١
المطلب الثاني: نظام الطبيعة عند هولباخ	٣٧٦
المطلب الثالث: نظام الطبيعة عند هولباخ وعلاقته بالإله	٣٨٣
المبحث الثاني: نظام الطبيعة عند هيوم	٣٩٦
المطلب الأول: الترجمة لهيوم	٣٩٦
المطلب الثاني: تحليل هيوم للمعرفة	٣٩٩
المطلب الثالث: نظام الطبيعة عند هيوم وعلاقته بالإله	٤٠٥
الخاتمة	٤١٨
المصادر والمراجع	٤٢١
فهرس الموضوعات	٤٢٤